نفحات من السكينة القرآنية

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

أشرف على طبعه وتصحيحه

فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن محمود

من علماء الأزهر

من منشورات

المؤسسة السعيدية بالرياض

لصاحبها : فهد بن عبد العزيز السعيد

ش الخزان ـ هاتف : ٢٥٥٦١

حقــوق الطبــع محفــوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

« اطلع شيخنا العلامة الجليل الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رئيس المجلس الأعلى للقضاء فى المملكه العربية السعودية على بعض هذا الكتاب فتفضل مشكوراً بكتابة الكلمة التالية » . .

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده :

وبعد :

فقد قرأ علىّ فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودى ، الأمين العام للدعوة الإسلامية فصولا من مؤلفه القيم : « نفحات من السكينة القرآنية » فألفيته كتاباً مفيداً ، أورد فيه المؤلف الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بالسكينة ، وتناول معانيها بالإيضاح والتفسير ، تفسيراً قصد به بيان العظة

والعبرة من الآية ، دون أن يركز على بيان معانى مفردات الكلمات ، فجاءَ كتابه سهل الفهم ، واضح المعنى سلس العبارة ، ولا غرو ، فإن فضيلة الشيخ العبودى من المشايخ الذين أمضوا قدرًا من حياتهم فى دراسة العلوم الإسلامية ، وهو — إلى جانب ذلك — أديب فاضل حصل على (ميدالية) الاستحقاق فى الأدب .فإن كتابه واضح لمن يقرؤه ، وخاصة من لم يكن لهم سابق ممارسة بقراءة كتب التفسير ، ولامعرفة باصطلاحات المفسرين .

ولا شك فى أن المسلم بحاجة دائمة إلى تلاوة كتاب الله تعالى وتدبر آياته الكريمة ، يستمد من ذلك سكينة النفس وهدوء البال ، ويحصل مع ذلك على الأجر العظيم والثواب الجزيل على تلاوة القرآن الكريم .

نسأل الله تعالى أن يثيب المؤلف الشيخ محمداً

العبودىَّ ، وأَن ينفع بكتابه ، وأَن يوفق المسلمين إلى مافيه صلاحهم وفلاحهم فى أَمر دينهم ودنياهم ، إِنه قريب مجيب .

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أَجمعين

عبد الله بن محمـــد بن حميد

الختم

رئيس مجلس القضـــاء الأعلى

الرياض فى ٤ / ٦ / ١٣٩٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]

[الأَنفال ١٠]

[ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا]

[التوبة ٢٦]

[فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُود لَمْ تَرَوْهَا]

[التوبة ٤٠]

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ]

[يونس : ٥٧]

[الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ]

[الرعد : ٢٨]

[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبيَانًا لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ]

[النحل : ٨٩]

[قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ]

[النحل ١٠٢]

[إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا]

[الإسراء : ٩]

[وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّاخَسَارا]

[الإسراء : ٨٢]

[طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ • هدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ • الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ]

[النمل : ١ و ٢ و٣]

[قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدىً وَشِفَاءٌ]

[فصلت : ٤٤]

[وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ]

[الأَحقاف : ١٢]

[هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ

[الفتح : ٤]

[لَقَد رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِم فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِم وَ أَثَابَهُم فَتحًا قَرِيبًا]

[الفتح : ١٨]

[إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

[الفتح : ٢٦]

[وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ]

[الصف : ١٣]

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمٰن الرَّحِيم ، مَالِكِ يوم الدِّين ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، آهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين

وبعد :

فإن كتاب الله العظيم فيه شفاء للنفوس ، ودواء للقلوب ، وجلاء للهموم والغموم . بل هو بلسم الأَحزان ، وإكسير الحياة الهانئة المطمئنة ، التى لاتزعزعها عواصف الشك ، ولاتقلقها نوازع الإرتياب .

فالمؤمن إذا أَلمَّت به نكبة ، أَو أَصابته

مصيبة ، ثم فزع إلى كتاب الله الكريم بقلب عامر بالإيمان ، مفعم بالثقة ، يتلوه ويتدبر آياته ، ويتنعم بألفاظه ، ويصدّق وعده ووعيده ، فإن همه يزول ، وغمه ينجلى ، بل إن كربه يعود سرورًا ، وضيقه يعقبه حبورا .

ذلك أمر يحس به القوم الذين رزقوا حلاوة الإيمان ، وأُوتوا لذة التداوى بالقرآن وهم - ولله الحمد - كثير فى كل زمان ومكان .

وقد حاول أحدهم أن يذكر للناس ذلك النعيم الذى يشعر به ، وتلك الحلاوة التى تملا فؤاده والأُنس القرآنى الذى يغمر قلبه فقال :

« لو يعلم الملوك وأبناءُ الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف » .

لقد قال : « لو يعلم الملوك » ذلك لأن حلاوة

الإيمان ونشوة اليقين لايعلم بها إلَّا مَنْ ذاقها ، ولا يحس بوجودها إلَّا مَنْ نعم بها .

وقال آخر — وقد حبسه أعداؤه — : « ما يصنع أعدائى بى ! ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى »

فماذا يَصْنَعُ الأعداءُ برجل جنته فى صدره : إيمانٌ يملأُه ، وطمأنينة لاحد لها ، وبستانه الذى يسير فيه فيملأُ نفسه فرحًا وسرورًا ، إنما هو كتاب الله الذى يتلوه فى مختلف أحواله . فتنفرج همومه وتزول كروبه .

وفى القرآن الكريم من آيات التأَسِّى ، وبث السكينة فى النفس ، والحث على عدم الأسى على مافات ، والاستعداد للمستقبل بنفس مطمئنة مستبشرة آيات كثيرة ، ربما لايفطن لها كلها أكثر الذين يتلون القرآن الكريم ، وربما مر عليها بعضهم

وهو لايعرف معناها ، لأنه يحتاج إلى تفسير الآية ، أو تفسير بعض كلماتها .

وقد حاولت أن أجمع آيات التأسى تلك ، أفسّر ما أظنه يحتاج منها إلى تفسير ، غير متبع فى التفسير قول أحد من المتقدمين ، إلّا ما حسبته صوابا ، مضربا عن اختلافات المفسرين ، وأقوالهم المتضاربة . إذ المقصود هو عرض الآيات المذكورة مع إيضاح معانيها ، واضعا نصب عينى أن كتاب الله الكريم الذى أنزله الله للتدبر والتفكر إلى يوم القيامة كما قال تعالى :

[وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ]

[القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠]

وقال تعالى

[كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ]

[ص ٣٠]

والادِّكار والتدبر لايكونان فى قرن دون قرن، والدعوة إلى تدبر القرآن ليست موجهة لقوم دون قوم ، ولاهى مرحلية كانت فى زمن معين مضى وانقضى .

على أَننى إِذْ أَخص آيات التأَسى بالذكر ، وأفردها بالإِيراد لا ينبغى أَن أَنسى أَن القرآن الكريم كله جالب للطمأَنينة فى النفس ، وباعث على التأَسى إِذا تلى بإِمعانٍ وتفكر وحضور قلب .

فآيات الوعد والوعيد تزيد المؤمن إِيماناً ، فتطيب نفسه ، ويهدأَ باله

وقصص القرآن فيه من العظة والعبرة ماهو كذلك .

وإِنما أَختص الآياتِ الواردةَ فى التأَسّى والاطمئنان والسكينة

وقد يقول قائل من الكافرين ، ممن ختم الله

على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة : إنه لايجد فى القرآن إلا مما يجده فى كتاب آخر غير القرآن .

أو قد يقول قائل من المسلمين ممن رانت على قلوبهم المعاصى ، وطمست بصائرهم الشكوك ، وأبعدتهم الآثام وأهواءُ النفوس عن التلذذ بالقرآن ، فهو يقول :

إننى لا أجد ما تجدونه عند تلاوة القرآن . ولا أحس من نفسى أنها شفيت من آلامها عند قراءته .

والجواب :

إن القرآن الكريم هو كما قال تعالى :

[هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ] .

فحلاوة الإيمان أمر وُجْدانىٌّ ، يُحِسُّ بها مَنْ عمرت قلبه الطاعة . وصفا ذهنه بتجنب المعاصى ، حتى أصبحت تلاوة القرآن تزيده إيماناً إلى إيمان ، ولذة التلاوة تضفى على حياة القارىء حلاوة مّا بعدها حلاوة ، وأُنساً دونه كلُّ أُنس .

وذلك أمر ليس كالسلع التى تشترى بالمال . ولاهو يدرك بالاستعجال ، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء

وهو سبحانه قد يَسَّر القرآن للذكر ، فما على مَنْ أراد ماذكرناه ، ورغب فى أن يجد ما أوردناه إلا أن يبدأ من ساعته بعزم وتأكيد على نفسه ، وبنية صادقة لاتشوب صدقها شائبة ، بأن يقلع عما يقارفه من معاصٍ ، وأن يبتعد عما يأتيه من آثام ، وأن يبذل جهده فى إيتاءِ ما استطاع من القربات ، وتقديم ما يقدر عليه من نوافل الطاعات ، فضلًا عن الإلتزام بالواجبات المفروضة من العبادات ،

والتخلى عن جميع الظلامات ، التى كان يأتيها للمخلوقات

وبالجملة : أن يبدأ من ساعته بالعمل بتقوى الله ، وترك محارمه ، وإحسان العمل لآخرته ولدنياه التى لاتتنافى مع أعمال الآخرة .

وهو بعد ذلك - إن شاء الله - واجد ماوجده المؤمنون . وواصلٌ إلى ما وصل إليه السابقون المتقون . والله لايضيع أجر من أحسن عملا . وهو حسب المؤمن ونعم الوكيل .

الرياض : ٤ - ٣ - ١٣٩٨ هـ
١١ - ٢ - ١٩٧٨ م

محمد بن ناصر العبودى

نفسية المخالفين

[وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]

[البقرة : ١١١ ، ١١٢]

فهاتان الآيتان الكريمتان ينبغى أن يقرأهما المؤمن عندما يتهمه الضالون والمنحرفون بعدم العلم والبصيرة . أو يتوقعون له مستقبلا لايبشر بالنجاح

وهما - إلى مافيهما من التأسى وبعث الطمأنينة فى النفس - فيهما ذكر الإحسان الذى هو : الإحسان فى العمل للدنيا والآخرة ، ومن أحسن العمل بقدر

استطاعته لدنياه وأُخراه ، وفى علاقاته بإخوانه المسلمين وعلاقاته بغيرهم من أَرباب الأَديان الأُخرى ،وأَسلم وجهه لله بالانقياد والطاعة ، فإنه بلاشك من الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

أَما أَولئك الذين يخالفونه فى المبدإِ ويناصبونه العداء المذهبى ، فإنه ينبغى له أَن يعلم أَنه لامجال للطمع فى رضاهم عنه والسكوت عما جاءَ به ، فضلا عن موافقتهم له وتحبيذهم لرأيه ، كما قال — تعالى ـ فى السورة نفسها .

[وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَاالنَّصَارَىٰ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ]

[البقرة : ١٢٠]

فإذا جعل ذلك نصب عينه ، وفى مقدمة تفكيره فإنه يوطن نفسه عليه ، وبذلك تتجنب الانزعاج

والانفعال لأقوالهم ، والجزع من أفعالهم ، وبالتالى تطمئن وتهدأ .

(الطمأنينة فى الغربة)

[وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ]

[البقرة : ١١٥]

هذه الآية الكريمة نزلت فى القبلة ، ولكن المؤمن إذا تلاها وهو فى مكان ناءٍ عن وطنه ، أو فى ركن قصى من الدنيا لم يره من قبل ، واستشعر آخر الآية الكريمة ، وهو وصف الله - سبحانه وتعالى - بأنه واسع وأنه عليم ، تذكره صغر الدنيا ومافيها ، وتذكره شمول علم الله لكل خلقه فى أى مكان من الكون . كما يتذكر من قوله تعالى « فثم وجه الله » أن الله معه يرعاه ويحرسه . ويطلع على حركاته وسكناته أينما كان ، وفى أى موقع حَلّ ، فتطيب

نفسه ، ويهدأ باله ، وتزول عنه وحشة الغربة ، ويهون عليه بعده عن الوطن . لاسيما إذا تلا هنا الآية الكريمة الأُخرى :

[يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ]

[العنكبوت : ٥٦]

فالأَرض - رغم سعتها - هى موضع لعبادة المؤمن لربه ، لأَنه - سبحانه وتعالى - معبود فى كل مكان ، وهو - تعالى - الذى يستحق العبادة فى أَقاصى الأَرض وأَدانيها ، لأَنه - تعالى - :

[هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . يُولِجُ اللَّيْلَ فى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ]

[الحديد : ٣ ـ ٦]

فسواء كان المؤمن فى بلده أَو فى بلا د غير بلاده قر يبة أَم بعيدة ، فإِن ربه ـ تعالى ـ معه ، لأَنه ـ تعالى ـ بكل شىءٍ عليم ، وعلمه ـ تعالى ـ قبل علم غيره وبعد علم غيره ، وهو عالم بما كان كيف كان ، وبما يكون كما هو كائن ، وبما سيكون كما سيكون ، لأَنه هو ـ تعالى ـ الذى خلق المخلوقات العظام من السموات والأَرض ، والذى خلق السموات والأَرض يعلم ما يدخل فيها وما يخرج منها ، وما ينزل منها ، وما يعرج إِليها .

وهويعلن ـ تعالى ـ أَنه مع كل مخلوق ومع مخلوقاته على كثرتها ، ومع كل آدمى أَينما كان فى أَقاصى

الأَرض أَو أَدانيها أَو فى ما ارتفع من أَجواءِ الفضاء أَو ما انخفض من غياهب البحار والمحيطات ، وهو بصير بما يعمل ذلك المخلوق ، لا يخفى عليه شىء من عمله ، لأَنه تعالى له ملك السموات والأَرض

انظر إِلى هذا التعبير العظيم الذى لايدرك العقل البشرى العادى عظمته إِلا بعد أَن يطلع على كلام أَهل الفلك وعلماء الفضاء عما عرفوه من سعة الكون وعظمته ورحابته ، التى يكاد العقل يعجز عن تصورها والتى هم بدون شك لم يعرفوا إِلا جزءاً منها ، قد يعرف من يأَتى بعدهم أَكثر منها كما عرفوا مالم يعرفه من قبلهم ، ممن لايؤمن بالوحى ولايقر إِلا بالمحسوسات .

وبعد أَن تتأَمل هذه الكلمات التى تحس لمعناها بالرهبة والخشوع ، انظر إِلى تلك العبارة التى ختم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها هذه الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى :

[وإِلى الله ترجع الأُمور] فكل أُمور الكون على

سعته ، وكل أسرار النفس البشرية على تعقيدها وكل علوم ابن آدم ومعلوماته على تشعبها ، بل وكل المخلوقات مرجعها إليه: سبحانه وتعالى .

ثم ذكر تعالى مثلين : أحدهما: لعظمة هذا الكون ولطف صنعه تعالى فيه ، وهو قوله [يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل] هل تصورت الإيلاج أى :دخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، على تفاوت بقاع الأرض وتغاير فصول السنة ، كل ذلك بنظام دقيق ، ووفق سنن ثابتة وقوانين غاية فى الدقة والانضباط .

والثانى هو :لهواجس النفس البشرية ونوازع هواها وما يختلج فيها من خير وشر، قبل أن يكون فعلا يراه الناس ويحسون آثاره ، وذلك فى قوله تعالى [وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ]

إن المؤمن الصادق الإيمان إذا تلا هذه الآيات الكريمة ، فإنه سوف يستشعر عظمة الخالق عز وجل

ومعيته له فى كل مكان من الأَرض ، وفى كل زمان من الأَزمنة ؛ فيشعر بالطمأنينة والسكينة ، وينفى عن خاطره خواطر الضياع .

وليتل أَيضا قوله تعالى :

[أَلَمْ تَر أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فى السَّمٰوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَما كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْىءٍ عَلِيمٌ]

[المجادلة : ٧]

(ما عليك إلا البلاغ)

[إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَاتُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ]

[البقرة : ١١٩]

على المصلح والمرشد أَن يبين الحق ويبشر فاعليه بالخير ، وأَن يوضح الباطل وينذر فاعليه بما قد يصيبهم من السوء ، ثم هو ليس مسئولا عما يحدث لمن آثر الضلالة وتنكب الصراط السوى ، فالمصلح الناصح ليس مسئولا عن أَصحاب الجحيم ، ليس مسئولا عن عدم هدايتهم ، وليس مسئولا عما يصيبهم من عقاب ؛ لذلك ينبغى أَن لا يقلق ولا يهلك هما وغما إِذا لم يستجب بعض الناس لدعوة الخير .

وهو إِذا فعل ذلك فإِن نفسه ستطمئن إِلى قيامه بالواجب وإِبلاغ الحجة بعد أَن يفارقها الأَسف والحزن على عدم هداية من ضل من الضالين .

على أَنه ينبغى أَلَّا يطمئن إِلى ذلك إِلا بعد أَن يتيقن من أَنه قام بأَداء واجب الدعوة خير قيام ، وأَنه لم يقصر فى الإِبلاغ والإِيضاح والبيان : أَى أَنه قد بلَّغَ حتى أَعذر .

(لا تحمل غم الذين مضوا)

[تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَاتُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ]

[البقرة : ١٣٤ و ١٤١]

وردت هذه الآية الكريمة فى موقعين من سورة البقرة ، لأَهميتها ؛ وهى أَصل عظيم فى اطراح أَهم الأَحداث التاريخية التى مضت وانقضت ، فلاينبغى للمرء أَن يحزن على هزيمة من كان يريد — لهم ممن مضوا — أَن ينتصروا ، ولاعلى انتصارمن كان يريد نهم أَن ينهزم .

وإِنما ينبغى له أَن يطلع على تلك الأَحداث ليستفيد منها العظة والعبرة لما يفيده ويفيد الأُمة الإِسلامية فى حاضرها ومستقبلها ، ذلك بأَنها كانت لأُمة خلت منها الأَرض ، وتخلت عنها الأَحداث ، ولقيت كل طائفة فيها ما كسبت وما لقيته من

ذلك ،لايؤثر على ما كسبه الأحياء ، ولا يسئل الأحياء عنه .

فلم الغم والكدر لما حصل لهم إذاً ؟

(الأعداء فى شقاق)

[فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَد اهْتَدَوْا ، وإِنْ تَوَلَّوَا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ]

[البقرة : ١٣٧]

وهذه من الآيات التى تبث الطمأنينة والسكينة فى النفس ، فالمؤمنون إذا قاموا بواجب الدعوة والبلاغ ، فإنه ينبغى أن يتذكروا أن الهداية بيد الله وحده ، وينبغى لهم أن يضعوا فى أذهانهم هذا الدواء الإلهى للقلق من هذا الموضوع ، وهو أنه إذا لم يؤمن المدعُوُّونَ بما آمن به المؤمنون فإن الله تعالى سيكفى المؤمنين شرهم ، وسيجعل الكفار فى شقاق وخصام ، لأنهم ليسوا من أصحاب المبادىء التى قام

بناؤها على أُسس الوحى السماوى ، بخلاف أهل التقوى والهداية ، كما قال تعالى :

[الأَخِلَّاءُ يَوْمِئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عُدُوٌّ ، إِلَّا الْمُتَّقِينَ]

[الزخرف : ٦٧]

وهو - تعالى - السميع للجميع ، العليم بكل شىء ، ومن ذلك علمه - تعالى - بمن يستحق الهداية ومن يستحق الضلالة .

(الاعتصام بالصبر)

[يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ]

[البقرة : ١٥٣]

من صبر واستعان على ما يلاقيه من تاعب ومحن بذكر الله ، وبالصلاة لله ، فإن الله معه ، لأن الله - تعالى - مع الصابرين : أى الذين يصبرون على الحق ،

ويتحملون المشاق فى سبيله ؛ ومنْ فعل ذلك واستشعر أَن الله معه ، فإِنه يكون من السعداء المطمئنين بغير شك .

وإِذا كان الصبر على طاعة الله مطلوباً للطمأْنينة والسكينة والانقياد لأَوامر الله فإِنه كذلك مطلوب لمواجهة متاعب الدنيا ومصاعبها كما قال تعالى فى الآيات التالية :

[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابرينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ] .

[البقرة : ١٥٤ - ١٥٦]

فسنة الله فى الحياة أَن يُبْتلى الناسُ أَحيانا ببلايا ومصائب ومنغصات ، كالخوف والجوع ونقص

من الأموال بالأزمات الاقتصادية ونحوها، ونقص من الأنفس بالأوبئة والأمراض والحروب أو حوادث الطائرات أو السيارات، وتلك البلايا والمنغصات يستوى فيها المؤمن والكافر، ولكن الذى يميز المؤمن أنه يصبر صبر الطاعة والاحتساب، وإذا أصابته مصيبة فإنه يسلم أمره لله، ويتيقن أنه لابد راجع إلى الله، هو وما يملك ومن يحب، ومن فعل ذلك فإنه تنزل عليه من ربه سكينة ورحمة وطمأنينة نفس، لأنه قد اهتدى إلى الطريقة الصحيحة التى يجب على الإنسان أن يسلكها عند حلول المصائب والكوارث.

(الدعاء)

[وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ]

[البقرة : ١٨٦]

من استشعر قرب ربه منه ، وأنه سبحانه يجيب دعوة الداع المؤمن به المستجيب لأوامره ، فإنه يفزع إلى الله - سبحانه وتعالى - فى أن يزيل همومه وأحزانه ، وهو القادر - سبحانه - على ذلك .

ومَنْ فزع إليه - سبحانه - وهو على تلك الحال ، فإنه يكون قد أصاب الرشد ، ووجد الدواء ، لاسيما إذا تلا الآية الكريمة الأخرى التى تتضمن الأمر بالدعاء ، وهى قوله تعالى :

[وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ]

[غافر : ٦٠]

فهو سبحانه وتعالى أمر عباده بدعائه ، ووعدهم بالاستجابة ، ولكن هل الدعاء الذى ترجى له الاستجابة مطلق غير مقيد ، أو بعبارة أخرى : هل تتضمن هذه الآية أن كل دعاء ستكون الاستجابة له حتمية ؟

والجواب يتضح بعد قراءة الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف مع تفسيرهما .

[ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وخُفْيَةً إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَلَاتُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ]

[الأعراف ٥٥ و٥٦]

فدعاءُ الله سبحانه وتعالى بحضور قلب ، وخشوع نفس . وإيمان مفعم للقلب بالإجابة من أهم أسباب اطمئنان النفس المؤمنة . وتفريج كربها ، لذلك أمر الله المؤمنين بأن يدعوه تضرعا وخفية ، ولكن عليهم ألا يعتدوا فى الدعاءِ ولاغيره ، ومن الاعتداءِ فى الدعاءِ أنه يدعوا على من لايستحق أن يُدْعَىٰ عليه بالشر والضرر ، أو أن يهملوا النظر فى سنن الله الكونية فى الأخذ بالأسباب ، ثم يدعون

الله سبحانه بما يخالف ذلك .

ولذلك قال تعالى [إنه لايحب المعتدين] وقال بعدها [ولا تفسدوا فى الأَرض بعد إِصلاحها] فالذى يعتدى ويفسد فى الأَرض ثم يدعو بأَن يثاب ثواباً حسنا على ذلك ، إِنما يخادع نفسه ، ويخالف أَمر الله تعالى فى الدعاء .

ثم كرر تعالى ذكر الدعاء بعد ذلك بأَن يكون خوفا وطمعا ، أَى لزوال المكروه ، وحصول المطلوب .

ثم ذكر تعالى أَن رحمته قريب من المحسنين والإِحسان بشيئين : القول والفعل .

ومن ذلك دعاؤه سبحانه وتعالى :

(الابتـــلاء والامتحان)

[أَم حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ولَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُوَالضَّرَّاءُ

وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ]

[البقرة : ٢١٤]

لابد فى الدعوة إلى الله من المشقة والتعب ، بل ربما طال ذلك حتى يستبطىء بعض الداعين النصر ، ويكاد إيمانه بالنصر يزلزل إذ يطول الوقت ويتعاقب عليه البؤس والضر - قبل أن يرى نتائج الدعوة مثمرة ، حتى يرفع أمره إلى ربه متسائلا : متى نصرك يارب ؟ ولكن نصر الله قريب ، رغم ظن الظانين واستبطاء المستبطئين .

وهذا ما يبعث الطمأنينة فى النفس ، ويدعو إلى التأسّى فى انتظار الفرج وزوال الغم .

لأن تلك هى سنة الله تعالى فيمن خلوا من الأمم وتقلبوا فى أطوار الضعف والقوة ، فيمكن للمؤمن أن يقرأ سيرهم بالاستنباط والتذكر ، وإذن لم يبق أهل فليتأمل

هذه الآية الكريمة التى ذكرت هذا المعنى ، وذكرت أنهم قد يصل بهم الأمر إلى حد الاقتراب من اليأس ، مع أن نصره تعالى قريب ، ولكن ذلك كان لشدة مالقوه من البؤس والضر .

(القتـــال)

[كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ،وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ]

[البقرة : ٢١٦]

كتِب الله القتال وأمر المسلمين بالجهاد وحث عليه ، والقتال مكروه للنفوس ، ولكن المكروه للنفوس قد يكون له نتائج سارة ، ويكون من ورائه مغانم مادية ومعنوية عظيمة ، كما أن الدعة والراحة محبوبة إلى النفوس ، ولكنها يكون لها نتائج ضارة مكروهة إلى النفس فى بعض الأحيان .

لذلك يجب على المسلم أن يطيع أمر الله فى القتال وغيره من الأُمور التى قد تكرهها النفس لثقلها وصعوبة تحملها ، أو لعدم معرفة نتائجها ، لأن الذى أمر بالقتال هو الخالق العظيم ، الذى يعلم مالايعلمه المخلوق .

المسلم إذا تيقن ذلك طابت نفسه وانقادت لأوامر ربه ، ولو كانت ثقيلة على النفس فى بعض الظروف ، وأمسكت عن نواهيه ، ولو كانت محبوبة للنفس .

(توازن القوى فى الأرض)

[وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْل عَلَى الْعَالَمِينَ]

[البقرة : ٢٥١]

قد يفكر المرءُ فى أحوال الأُمم الحاضرة فيقوده تفكيره إلى أن يتوقع نمو قوة كافرة أو مجموعة

أُمم من الكفار ، فيخشى أَن تزداد قوتها حتى تسيطر على العالم دون منازع ، فينساق أَبناؤها مع نشوة النصر ، ويستعبدون الناس .

ولكنه إذا تذكر هذه الآية الكريمة : [ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُمْ ببعض لَفَسَدتِ الأَرْضُ] تيقن من أَنه لابد أَن يبعث الله من يدفع تلك القوة بقوة حق أَو بقوة باطل ، حتى يعود التوازن إِلى القوى ، ولايكون اختلال التوازن إِلا لفترة غير مستقرة ، تكون بمثابة « جولة الباطل وغفوة الحق إِلى أَجل محدود » .

(الله ولى الذين آمنـوا)

[اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلىٰ النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلىٰ الظُّلُمَاتِ]

[البقرة : ٢٥٧]

من نيقن أَن الله وليه ، يحرسه من الأَعداء ، ويهدى خطواته فيخرجه من ظلمات الشكوك إِلى نور الإِيمان ، طابت نفسه واطمأَن خاطره إِلى المستقبل .

فإِذا تلا الآية الكريمة :

[إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ]

[الأَعراف : ١٩٦]

اطمأَنت نفسه إِلى مصير أَولاده الصالحين من بعده .

(لا خوف من الفقر)

[الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ]

[البقرة : ٢٧٤]

لاخوف من الفقر والفاقة ، أو من القلق على المستقبل المالى لِمَنْ آمن بالله ، وأنفق فى الطرق المشروعة من ماله : إذا كان ممن ينطبق عليهم مدلول الآية الكريمة التالية :

[إِنَّ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ولاخوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ]

[البقرة : ٢٧٧]

وفى سورة يونس ذكر ـ تعالى ـ فى بيان رائع كامل الروعة والبلاغة والتأثير ذلك المعنى ، وأن لاخوف على مَنْ تولى اللهُ ولاحزن له .

فقال تعالى :

[أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ]

ثم نعتهم بأنهم : [الذينَ آمنوا وكانُوا يتقونَ]

فالإيمان بالله ركن أساسى فى الولاية ، ولكن لابدَّ معه من التقوى التى هى طاعة أوامر الله، واتقاء محارمه .

ثم ذكر - تعالى - أن أولياءَهِ لهم طمأنينة النفس وهدوء البال فى هذه الحياة الدنيا ، كما ينالون الثواب فى الآخرة ، وأن ذلك أمر حتمى صادر منه تعالى ، وهو سنة من سنن الكون التى لاتتبدل ، فقال :

[لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ، لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ]

[يونس : ٦٤]

وهل أعظم فوزاً فى هذه الدنيا من نعيم القلب وهناءِ النفس ، واطمئنان الضمير ، وهدوءِ البال .

على أن الإصابة بالمصائب أمر مكتوب على بنى البشر - من حيث هم بشر - كما أن المنغِّصاتِ

وكَبَدَ الحياةِ لاتقتصر على آدمى دون آخر ، وإن كانت تختلف فى المقدار والزمان كما قال تعالى :

[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فى كَبَد]

[البلد : ٤]

وذلك كله بسبب ما كسبته أيدى الناس ، كما قال تعالى :

[وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَة فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فى الْأَرْضِ ، وَمَالَكُمْ مِنْ دُون اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ]

[الشورى : ٣٠ و٣١]

ولو شاءَ تعالى لآخذهم بمايستحقون من عِقَابَ ، ولكنه تعالى يعفو عن الكثير ويتقبل العذر القليل .

[مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبةٍ فى الْأَرْضِ وَلَا فِى

أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَاب مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَاتَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ واللهُ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور]

[الحديد : ٢٢ و٢٣]

فهو تعالى أَخبر أَن كل ذلِكَ كان فى كتاب عنده سبحانه، محفوظٍ سائر على سنن اقتضتهـــا حكمته وعدله ، ووفقا لرحمته ولطفه بعباده قبل أَن يخلق بنى آدم ويبرأَ نسماتهم ، وذلك أَمر سهل يسيرٌ عليه ـ سبحانه ـ رغم كثرتهم واختلاف أَزمانهم ، لأَنه تعالى خالق الجميع ، ورب الكون الواسع العظيم ، والعالم بكل ما فيه .

وقد ذكّر بنى آدم بذلك حتى لايَأْسَوْا على أَمر محبوب لهم فاتهم الحصول عليه واستدراكه ، ولئلا يفرحوا بما حصلوا عليه من أُمور تشتهيها أَنفسهم ، وتميل لها أَهواؤهم .

ثم بين — تعالى — أنه « لايحب كل مختال » أى معجب بنفسه ، مُدِلٍ بما آتاه الله تعالى من نعمة كان مكتوبا فى الأزل أن يصيبها ، وهو تعالى لا يحب كل فخور بما أصاب من دنيا أو حصل عليه من عَرَضٍ فانٍ

ثم أكد عز وجل أن المصائب التى تحل ببنى آدم إنما هى من الأقدار التى يعلمها — تعالى — قبل وقوعها ، كما قال :

[مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ]

[التغابن : ١١]

فالمصائب تقع وفق علم الله — تعالى — ومشيئته فى كيفية وقوعها ، وهى تصيب بنى البشر جميعا . ولكن المؤمن وحده هو الذى ينفى أثرها السَّيِّىءَ فى نفسه بإيمانه بربه والتوكل عليه والاطمئنان إلى

رعايته ، فيهتدى قلبه إلى الرضا بالقضاء والتسليم بما لاحيلة له فى دفعه ، ويطمئن إلى ثوابه- تعالى - فى الصبر والاحتساب .

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)

[لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَاتَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَالَاطَاقَةَ لَنَا بِهِ ، واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنا ، أَنْتَ مَوْلَانا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ]

[البقرة : ٢٨٦]

وربنا سبحانه وتعالى إلى ما قدره على الإنسان بأنه فى دنياه لا بدّ له من أن يعيش فى كَبَدٍ ولابد من أن يكون - فى فترة من فترات حياته أو فى كل فترات حياته - غرضا للمصائب والمصاعب، أحيانا

بالمصاعب والمتاعب النفسية ، وأحيانا أخرى بالمصاعب والأمراض البدنية ، فإنه تعالى لايكلف نفساً إلّا وسعها ـ أى بمقدار تحملها ، وحسب ما فى وسعها من قوة مادية أو معنوية ، لأنه تعالى خلقها ذات إرادة ومشيئة ، وخلق لها وسائل معرفة الخير والشر ، ووسائل معرفة اتقاء المصائب واجتلاب المنافع ، ولذلك قال [لها ما كسبت] أى من خير ، [وعليها ما اكتسبت] من سوى الخير فى دنياها وأخراها .

ثم بين ـ تعالى ـ أن عباده المؤمنين يدركون أن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الخالق ، فهم يرفعون أفئدتهم وأكفهم بالدعاء إليه تعالى بأن لا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطأوا ، وتأمل هذه اللفظة الثمينة [إن نسينا أو أخطأنا] أى إنهم ليسوا كمن يركب الضلال على عَمْدٍ أو يركن إلى الشهوات ويدمن الاستمرار على سواء ، لاكتساب لدنياه وأخراه ، ولايقلع عن ذلك

ثم يدعو ربه بأَن لايؤاخذه بما فعل .

ثم تلك الدعوات العظيمة التى تشمل سؤال الخير فى الدنيا والأُخرى .

ومسك ختامها دعاؤه — تعالى — بأَن ينصر عباده المؤمنين على القوم الكافرين ، وذلك منتهى طلب المؤمن ، وغاية أَمانيه : أَن يعز الله دينه ، وأَن يخذل أَعداءَه من الكافرين المعادين له ولأَوليائه المؤمنين .

وفى أَول هذه الآية ورد عدم تكليف النفس إلا بوسعها فى صيغة الخبر الذى ظاهره الإِنشاء ، وهو الدعاءُ ، بدليل استمرار الدعاء بعده ، حتى آخر الآية .

وفى سورة [المؤمنون] جاءَت الآية الكريمة :

[وَلَانُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ]

[المؤمنون : ٦٢]

فكأنها استجابة للدعاءِ السابق فى سورة البقرة إذ ذكر تعالى على صورة التقرير والإخبار عن نفسه تعالى أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ثم عقب ذلك بأنه تعالى لا يظلم الأنفس حين قدر عليها ما قدر ، لأنه تعالى لديه كتاب محفوظ ينطق بالحق ، وفيه - من بين ما فيه - طاقة كل نفس ووسعها .

(ما عند الله خير)

[قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ]

[آل عمران : ١٥]

إذا رأى المؤمن الفقير ما قد يكون عليه بعض الكفار وأهل الضلال من ترف دنيوى أومظاهر حياة براقة ، فاستشرفت نفسه إلى شيءٍ منه أو

ساءلته : لماذا لايكون كذلك ؟ . فليتدبر هذه الآية . على أنه ليس الأمر واقفا عند هذا الحد ، أى حد الاعتقاد بأن المؤمن ليس له من الدنيا شىء ، بل يقول كما قال — تعالى — :

[رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفى الآخرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ] [البقرة : ٢٠١]

ذلك بأن حسنة الدنيا ، وفضل الله على أهلها ليس مقصوراً على غير المؤمنين ، إذ يكون فى المؤمنين من هو فى خير مادِّىٍّ كثير ، ونعمة سابغة من ربه . ولذلك يطلب المؤمن فضل الله بجهده ويذكر ما أُعِدَّ للمتقين فى الآخرة ، وأنه تعالى بصير بعباده ، يعلم من يكون خيراً له أن يوسع عليه فى الدنيا ، ومن يكون خيراً له أن يَقْدِرَ عليه رزقَهُ .

ولكن مَنْ هم أُولئك المتقون الذين وعدوا بالجنات والأزواج المطهرة والرضوان ؟

إنهم :

[الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ]

[آل عمران : ١٦ و١٧]

فالإقرار بالقول ، وطلب المغفرة عن التقصير فى حق الله ، وبالتالى سؤال الوقاية من عقابه . والصبر على طاعة الله ، والصبر عن محارم الله ،والصدق فى المعاملة مع الله ومع عباده ، والقنوت والتعبد والخشوع له سبحانه والإنفاق فى سبل الإحسان ، والاستغفار والإنابة إليه فى الأسحار .

تلك جميعا صفات المؤمنين الذين يستحقون الجنة والرضوان من الله . كما وردت صفات لهم أخر فى آية أخرى من السورة نفسها ، وهى :

[الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السَّراءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ

الْغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ]
[آل عمران : ١٣٤]

أَرأَيت هذه الصفات الرائعة التى تصف المتقين بأَنهم : الذين ينفقون المال فى سبيل الإِحسان مما تهواه أَنفسهم ، وتُسَرُّ له ، كما ينفقونه امتثالاً لأَمر الله وابتغاءً لمرضاته فى السبيل التى قد تضِنُّ النفس البشرية عادة بإِنفاق المال فيها . وأَنهم الذين يكظمون الغَيظ ، فيصبرون على أَذى الناس ، بل إِنهم الذين يعفون عن الناس .

وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس فى هذه الآية ليس خاصًّا بأَن يكظم المؤمن غيظه فى حالة المعاملة مع المسلمين ، أَو أَن يعفو فى حقوقه الخاصة عن المسلمين دون غيرهم ، بل ذلك عام للناس جميعا ، ولذلك ختم - سبحانه وتعالى - الآية بقوله : [واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] والإِحسان هنا : عام لاخاص ، لأَنه مطلق غير مقيد .

ثم وصفهم تعالى — بأَنهم الذين إِذا غلب عليهم الضعف البشرى ، ولم يستطيعوا مقاومة نوازع النفس الأَمارة بالسوءِ ، ففعلوا فاحشة — من الفواحش وظلموا أَنفسهم ، ولم يقل — تعالى — : أَو ظلموا غيرهم ، فحقوق العباد لايترك الله منها شيئاً — ذكروا الله — تعالى — وفزعوا إِليه ، وعلموا بعد فوات الأَوان أَنهم قد أَخطأوا فى معاملتهم مع الله ، فاستغفروا لذنوبهم ، لأَنه لايغفر الذنوب إِلا الله . ولكنهم لايتخذون ذلك دينا ولا عادة متكررة ، بل إِنهم لايصرون على ما فعلوا من الفواحش ، ولاينوون العودة إِليه .

ثم أَعاد — تعالى — ذكر ما وعدهم به من الثواب والجزاءِ الحسن بقوله : [أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ]

[آل عمران : ١٣٦]

وجاءَ فى آية أُخرى هذا المعنى فيمن ظلم نفسه ، ثم استغفر وأَناب .

وينبغى أَن نضع هنا فى أَذهاننا أَنه - سبحانه وتعالى - قال ذلك فيمن ظلم نفسه . وتلك الآية هى قوله تعالى :

[وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا]

[النساءُ : ١١٠]

وهذا الثواب العظيم والنعيم المقيم هو خير من الدنيا وما فيها ، كما قال تعالى فى آية آخرى

[قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ]

[يونس : ٥٨]

وهو خير للمتقين فى الدنيا والآخرة كما قال - تعالى - :

[وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا

خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ]

[النحل : ٣٠]

(مصابرة الأعـــداء)

[وَلَا تَهِنُوا وَلَاتَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ.وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ]

[آل عمران : ١٣٩ - ١٤٢]

قد تضيق صدور المؤمنين عند مقارعة الكافرين ومقاتلة من يقاتلونهم من أهل الضلال ، ولكن الله

سبحانه وتعالى يأمرهم بألا يضعفوا ولا يحزنوا ، لأنهم الأعلون مكانة فى الحق ، ولأنهم مؤمنون بذلك ، أما ما يصيبهم من مشقات الحرب وويلاتها ، أو من مصاعب المقارعة والمنازلة ، فإن ذلك من طبيعة الأمور ، لأنهم بشر ، يصيبهم ما يصيب البشر ، وإن أعداءهم يقاسون ما يقاسونه من تلك المشقات والمصاعب ، كما أن الله - سبحانه وتعالى - لحكمته وعلمه - قد يجعل دَوْلة فى يوم من الأيام لقوم ، وفى يوم آخر لقوم آخرين ، ولكن العاقبة للمتقين .

ومن حكمته فى ذلك : ليتبين القوم الذين يؤمنون بالله إيمانا حقا لاتزعزعه العواصف ، ولا تتطرق إليه الشكوك ، كما أن فى إصابة المؤمنين ببعض المصاعب والهزائم فى الحروب تمحيصاً وتطهيراً لهم من ذنوبهم ، ومحقا للكافرين الذين لايؤمنون بحكمته - تعالى - وبأن النصر الأخير هو

للمؤمنين الصابرين ، وتلك سنة الله فى أن لايدخل المؤمنين الجنة إلا بعد أن يبتليهم ؛ وبعد أن يعلم قوة صبرهم على أوامره — تعالى — واحتمالهم لها .

ولذلك قال تعالى فى آية أخرى : [وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ؛ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيمًا]

[النساء : ١٠٤]

[إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ]

[آل عمران : ١٦٠]

هذه الآية العظيمة فى التوكل على الله ، وانتظار النصر من عنده ، وردت فى سياق قصة يوم أُحِد ، ليتبين للمؤمنين أنهم إذا نصروا الله بأن اتبعوا

أوامره واجتنبوا نواهيه فإنه سينصرهم ، وإذا أراد - سبحانه وتعالى - نصرهم فإنه لاغالب لهم ؛ ولذلك يجب أن يتوكل عليه المؤمنون الذين نصروه بالفعل ، واستفرغوا الجهد فى ذلك .

وفى الآيات الكريمة التالية دستور إلٰهى فى القتال ، يشتمل على التوصية بالصبر أثناء المعركة ، وبذل الجهد فى القتال ، ثم كيفية معاملة الكافرين بعد أن تميل المعركة إلى جانب المسلمين ، ويأخذوا من الكفار بعض الأسرى ، وماذا يصنع المسلمون بهم ، ثم بيان حكمته - تعالى - فى ألّا يجعل المعارك كلها - فى كل الحروب وفى جميع الأزمان تنتهى بهزيمة الكفار وانتصار المسلمين فيها ، ثم بين أن ما قد ينشأ عن إرادته تلك ، من استشهاد بعض المؤمنين ؛ إنما هو إكرامهم بالشهادة ، وعدم ضياع تضحياتهم التى يكون لها الثمرة فى أن تكون عاقبة الحروب لإخوانهم من المؤمنين الذين نصروا

الله واتبعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وأنهم هم الذين يثبت الله أقدامهم فى الحروب ، فيهزم بهم الأعداء ويبدد قوتهم .

ثم عقب تعالى بذكره ماجاء ذكره فى الآيات السابقة من ابتلاء المؤمنين والمجاهدين ؛ حتى يتضح صبرهم ، ويتبين صدقهم فى العمل فى سبيله — تعالى — وتقديم التضحيات فقال تعالى :

[فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ ، وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ] .

[محمد : ٤ — ٧]

[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ وَنَبْلوَ أَخْبارَكُمْ]

[محمد : ٣١]

[وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيل اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ]

[آل عمران :١٦٩-١٧١]

فهذه الآيات فى التأَسِّى بالشهداءِ فى سبيل الله الذين هم أَحياء عند ربهم ، وهم فرحون بالشهادة ، مستبشرون بإِخوانهم الذين ينتظرون الشهادة مثلهم ولما يلحقوا بهم بعد . وأَنهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

[لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الكُفْرِ]

* * *

[وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

[آل عمران : ١٧٦]

إذا رأى المؤمن أهل الكفر والعصيان يتمادون فى كفرهم وعصيانهم، بل يسارعون إلى ذلك، فإنه لا ينبغى له أن يحزن ويبتئس ، لأنهم لن يضروا الله شيئاً ، ولأنهم سيلقون جزاءهم العادل . وطبيعى أن ذلك يكون معه أن يستنفد جُهْدَه فى دعوتهم إلى الخير بقدر استطاعته، وفى نطاق إمكاناته .

[لَتُبْلَوُنَّ فى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ]

[آل عمران : ١٨٦]

لابد من أن يبتلى المؤمنون فى أموالهم وفى أنفسهم ، كما يبتلى غيرهم من بنى الإنسان ، ولابد أن يسمعوا ممن يخالفهم فى المبدأ ما يؤذيهم ، ولكنَّ العلاج لذلك كله هو : الصبر والتقوى ، ولأن ذلك من الأمور التى تحتاج إلى عزيمة وقوة إرادة .

[يَـأَيُّهَا الرَّسُولُ لَايَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُون فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ، سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

[المائدة : ٤١]

هذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأُمته أُسوة به ، فقد أَمره الله أَلا يحزن من كيد عمل المنافقين الذين يظهرون بأَلسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويتولون الكفار من أَعداءِ الدعوة . لأَن من يريد الله له عدم الهداية لما يعلمه تعالى من خبثه ورداءَة معتقده فإِن الناس لايستطيعون أَن يهدوه ولو بذلوا كل جهودهم .

والمهم فى الأَمر أَن يتذكر المؤمن ذلك فلايحزن لعدم هداية الضالّ ويأْسف لذلك . ولايمنعه الخوف من مكر المخالفين فى الدين من الثبات على الحق ، لأَنه مهما كان مكرهم كبيراً فإِن قدرة الله فوق ذلك ؛ كما قال - تعالى - :

[وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ]

[ابراهيم : ٤٦]

(الاستغناء عمن تولى عن الحق)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ؛ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ؛ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَولَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ]

[المائدة : ٥٤ ـ ٥٦]

إذا رأى المرءُ من تنكب الطريق السوى من المسلمين ، ونكص على عقبيه عن الدين ؛ فليعلم أنه إنما يضر نفسه ، لأن الله سبحانه وتعالى سيعوض المسلمين خيراً منه ، وسيأتى بقوم أكثر عطفا على

المسلمين وأعظم [فائدة وأكثر ثباتاً على الحق منه ، كما قال تعالى مخاطبا لبعض الناس :

[وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ]

[آخر سورة محمد]

وقال - تعالى - مخاطبا للمؤمنين ، مخبراً إياهم بأنه - تعالى - هو مولاهم ، وأنه - تعالى - نعم النصير لهم إذا تولى بعض الناس عن الحق ، وانصرفوا عن الدين ، فقال عز وجل :

[وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ]

[الأنفال : ٤٠]

وكيف لايجد المؤمن الصادق الإيمان العزاء عن تَولِّى من تولّى - من الكافرين - عن الدين وهويسمع وعد الله فى إيجاد الإخوان المخلصين المؤمنين الصادقين

الذين تلك صفاتهم النادرة العظيمة ، والتى هى للمؤمنين الصادق الإيمان صدقا ، لا لمدعى الإيمان بأفواههم ، أو تقليداً لمن سبقهم من آبائهم ، وأجدادهم دون تحقيق ذلك من عمل صالح ، وتقوى لله تنهاهم عن الإقدام على المحارم ، وعن الإنصراف عن أوامره - تعالى - لاسيما إذا تأمل المؤمن هذه الجملة البليغة المؤثرة ؛ التى ختم - عز وجل - بها الآية الأولى ؛ وهى قوله تعالى :

[إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ]

فهو واسع القدرة والسلطان ، لايعجزه - تعالى - أن يهدى من يشاء ، ولا أن ينصر عباده المؤمنين ، وأن يخذل أعداءهم من أعداء الدين ، ذوى الأعمال السيئة فى الدنيا والآخرة .

وهو - تعالى - عليم بمن يصلح للخير ومن يصلح للشر ، وعليم بالأوقات المناسبة لهداية العباد ، وعليم متى يكون النصر ومتى يكون الابتلاء والامتحان

وليتذكر المؤمن أن وليه الحق هو الله — سبحانه وتعالى — ومن يوفقهم إلى الخير من الذين آمنوا : الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وأولئك هم حزب الله الغالبون فى النهاية على كل حال .

(لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]

[المائدة : ١٠٥]

ثم أكد — تعالى — عدم الحزن على ضلال من ضَلَّ ، فأمر الذين آمنوا بأن يلتفتوا إلى أنفسهم ، فيلزموها بطاعة أوامر الله ، والنهى عن مناهيه ، ومن طاعة الله بذل الوسع فى الدعوة إلى الله ؛ وهداية الضالين وهم إذا فعلوا ذلك لم يضرهم من ضلوا من الضالين ؛

لأَن مرجع الجميع إِليه سبحانه ، فيحاسب كُلًّا على ما اكتسبه ، وما قدمته يده من عمل : إِنْ خيْراً فخير ، وَإِنْ شَرًا فَشَرٌ .

ولذلك قال - تعالى - فى آية أُخرى :

[وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ]

[يونس : ٤١]

والسبب فى ذلك أَن بعض الناس خلقوا وعندهم استعداد لعدم الاهتداءِ مهما كان الحق ظاهراً واضحاً ، كما قال تعالى :

[إِنَّ الذينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَايُؤمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتَّى يَرَوُاْ العذَابَ الْأَلِيمَ]

[يونس : ٩٦ - ٩٧

وتلك حكمة بالغة لله - تعالى - عز شأنه فى أَن بعض الناس لايؤمنون على أَية حال ، وليس لعجز منه

ـ تعالى ـ عن أَن يجعلهم كلهم من المهتدين كما قال ـ تعالى ـ فى سورة يونس نفسها .

[وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذنِ اللهِ ،وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايَعْقِلُون]

[٩٩ و ١٠٠]

وهذا الأَمر لاينبغى أَن يكون جالبًا ليأس الداعى إِلى الله ، فيكون سبباً فى ترك الدعوة إِذا ضاق صدره بكفر الكافرين ، وجحود الجاحدين كما قال ـ تعالى ـ فى السورة بعدها :

[فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ] [هود : ١٢]

فالمؤمن ليس وكيلا على الناس ، بل الله - تعالى - هو الوكيل على كل شيءٍ فى الوجود ، من آدميين وغيرهم .

وإنما المؤمن الداعية إلى الله نذير ينهى الناس عن الشر .

أما الهداية فهى بيد الله ، كما قال - تعالى - :

[أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ]

[فاطر : ٨]

فإِنْ آذاه الجاحدون ، وعانده الكافرون ، ورموه بأَنه مفتر مبين ؛ فليقل هذه الآية الكريمة :

[أَمْ يَقُولُونَ افتراهُ قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تُجْرمون]

[هـود : ٣٥]

وعليه أن يقول :

[إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ ، وَمَاتَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ]

[هود : ٨٨]

لأَن الأَكثرية من الناس ليس عندهم الاستعداد للإِيمان ، كما قال تعالى :

[وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ]

[يوسف : ١٠٣]

وليعلم أَن هداية الخلق ليست بيده ؛ وإِنما هى بيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى هو أَعلم بالمهتدين ؛ كما قال ـ تعالى ـ :

[إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ] .

[القصص : ٥٦]

وليقل .

[وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ]

[إبراهيم : ١٢]

وإذا فعل الداعى ذلك فليركن إلى النتيجة المرضية فى الاطمئنان والثبات على الحق ، كما قال ـ تعالى ـ :

[يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِين وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ]

[إبراهيم : ٢٧]

وإن الله سيكفيه كيدهم واستهزاءهم ، كما قال - تعالى - :

[إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ]

[الحجر : ٩٥ و ٩٦]

وعليه أن يصبر على ما يصيبه منهم ، وألا يثنيه ذلك عن واجبه فى الدعوة إلى الله . وليستعن على ذلك بذكر الله وتحميده وتسبيحه وتمجيده . فى أثناء الليل وأطراف النهار . وليكثر من ذلك . ولا يقصر فيه . فذلك أجدر بأن يعينه على المصاعب التى يلاقيها كما قال - تعالى - :

[فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا]

[الإنسان : ٢٤ - ٢٦]

وعليه أن يواصل عبادة ربه والقنوت إليه ، والتضرع عند بابه حتى يلقاه ، كما قال - تعالى - بعد ذلك :

[فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . واعبد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ]

[الحجر : ٩٨ و٩٩]

(للجحود والإنكار أهل)

أما أعداء المؤمنين وأهل الشك والارتياب فإنهم فى عذاب أليم من : ضيق الصدر ، وحرج النفس ، وعدم هناءة العيش ، كما قال - تعالى - :

[فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ]

[الأنعام : ١٢٥]

وقال تعالى :

[وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا. وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ]

[طه : ١٢٥]

(لا يكشف الضر إلا الله)

[وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ]

[الأنعام : ١٧]

[وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُر فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَانْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ؛ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]

[يونس : ١٠٧]

إذا عرف المؤمن أَنَّ الله ـ سبحانه ـ هو النافع، وهو الضار ، فإنه بعد أن يفعل الأسباب الْمَأْمورَ

بفعلها ، يسلم أمره إلى الله ، ويتوكل عليه ، فتطيب نفسه . ويهدأ باله لانتظار الفرج ، وكشف الضر . ويقرأ الآية التالية :

[إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لَلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

[الأنعام : ٧٩]

فيزيده ذلك إيمانا إلى إيمانه ، وطمأنينة على طمأنينه

ذلك بأن الأمن والطمأنينة إنما هى للقوم :

[الَّذِينَ آمنُوا وَلم يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ]

[الأنعام : ٨١]

فتأمل كونه تعالى لم يقيد حصول الأمن إلَّا بالإيمان به تعالى ، وعدم الظلم لأحد من عباده .

(الله لطيف خبيـــر)

[ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُو يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ]

[الأَنعام : ١٠٢]

فالذى هو خالق كل شىء ولا مَعْبودَ بحقغَيْرُه ، وهو على كل شىء حفيظ ، وهو وكيل راع لكل خلقه ، وهو يدرك الأَبصار كلها ، ولا تدركه الأَبصار ، وهو لطيف بعباده ؛ خبير بهم ؛ وبما يصيبهم من الآلام ، وبعلاج تلك الآلام ، هو الذى يستحق أَن يَرْكَنَ إليه الإِنسانُ وَيطمئن إِلى لطفه ورحمته .

(لابد من الأَعداء)

[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْض زُخْرُفُ الْقَوْلِ غُرُوراً

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَافَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ]

[الأَنعام : ١١٢]

لاينبغى للمؤمن أَن يضيق بالأَعداء ولا أَن يجزع من وجودهم ؛ لأَنه له أُسوة بالأَنبياءِ الذين قيض الله لهم أَعداء من الإِنس والجن من الأَذكياءِ النشطين ذوى البصر بالكيد وإِلحاق الأَذى .

ووجود أُولئك الأَعداء إِنما هو لحكمة رآها سبحانه وتعالى — ولعل منها إِيجاد الحافز المستمر على العمل الطيب وعدم إِماتة المقاومة للشر فى النفس .

وأُولئك الأَعداء كما يكونون جماعات يكونون فرادى ، أَو جماعات أَحيانا ، كما قال :

[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا]

[الفرقان : ٣١]

وقد يكونون على نطاق المدن والقرى مثلا ، كما فى قوله تعالى :

[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَايَشْعُرونَ]

[الأَنعام : ١٢٣]

وكما يكونون من الكفار يكونون من الفسّاق أيضاً .

[وَإِذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا]

[الإسراء : ١٦]

ولكن قبل هلاك القرى يكون النُّذُرُ . كما قال تعالى :

[وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ .ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ]

[الشعراء : ٢٠٨ و ٢٠٩]

(ما أنت بهادى العمى)

[وَهَذَا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]

[الأنعام : ١٢٦ – ١٢٧]

المؤمن سبيله إلى مقاومة أعدائه وغيرهم ممن يسلكون طرقا ملتوية ، إذ يتبع صراط ربه المستقيم الواضح ، ومن فعل ذلك غمر قلبه السلام والطمأنينة فى دار السلام عند ربه ووليه سبحانه وتعالى وهو نعم المولى ونعم النصير .

أما أصحاب الضلال الظالمو أنفسهم وغيرهم فإن أولياءهم إنما هم الظالمون مثلهم :

[وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]

[الأنعام : ١٢٩]

وذلك جزاءُ عملهم السيءِ ، وما كسبت أيديهم وليس ظلماً لهم ، بل هو العدل .

[وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ]

[الجاثية : ١٩]

وإذا استعصى على المؤمن أن يحيط عقله بهذه الحكمة فليقرأْ الآية التالية من السورة نفسها :

[قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ]

[الأنعام : ١٤٩]

وقوله تعالى :

[فَإِنَّكَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَاتُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْ مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ]

[الروم : ٥٢ و ٥٣]

والآية الكريمة الأُخرى .

[قُلْ لِلَّذِينَ آمنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَايَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ] [الجاثية : ١٤ و ١٥]

(لكل أُمة أَجل)

[لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ] [يونس : ٤٩]

الأُمم كالأَفراد من حيث الثواب والعقاب ، فإِذا لم تحسن أُمة من الأُمم العمل لله ، أَو لأُمور دنياها بأَن أَهملت أَسباب بقائها وسيادتها ، فإِن أَجلها حينذاك يحين ، وإِنَّ هلاكها سيكون حتما وفى : أَجل لايتقدم ولايتأخر

وهلاك الأُمم التى يحين أَجلها لايكون بهلاك أَفرادها فحسب ، وإِنما قد يكون بسقوط عزها ،

وذهاب ناموسها ، واضمحلال قوتها ، أو تغلُّب الأعداءِ عليها . وذلك لأَجَلٍ مرتب على جزاءٍ لايتعداه ، كما قال - تعالى - فى سورة أُخرى .

[وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ]

[الحجر : ٤ و ٥]

بل إن البشرية كلها لها أَجلها المسمى ، الذى يشمل أُممها منفردة ومجتمعة ، كما قال :

[وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَايَسْتَقْدِمُونَ]

[النحل : ٦١]

وهو - سبحانه وتعالى - غفور رحيم ، قد يمهل الأُمة أَو أَهل البلاد مدة بسبب سعة مغفرته ورحمته ، رغم أَنهم يستحقون العقاب لذنوبهم وتقصيرهم ،

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ محدود كما قال -تعالى - :

[وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا . وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لِمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدا]

[الكهف : ٥٨ و٥٩]

وقال تعالى :

[وَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَة أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وإِلَيَّ الْمَصِيرُ]

[الحج : ٤٨]

فهو - سبحانه وتعالى - يمهل ولا يهمل ، لأَن مرجع الأَرض ومن عليها إِليه - تعالى - كما قال :

[إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ]

[مريم : ٤٠]

وكما أخبر -تعالى- أن هلاك الأُمم يكون وفق أجل محدود لامحيد عنه ولا انفكاك منه ، كذلك أخبر عز وجل بأن إنشاء الأُمم : أى نموها وتطورها ، إنما هو لأجل كذلك ، لاتتقدم عنه ولاتتأخر ، كما قال - تعالى - :

[ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ]

[المؤمنون : ٤٢ و٤٣]

وهلاك الأُمم إنما هو سبب اقتراف الأعمال السيئة ، كالبطر فى المعيشة ،وظلم العباد كما قال :

[وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّى يَبْعَثَ فى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِنَا ، وَمَا كُنَّا

مُهْلِكى الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمونَ]

[القصص : ٥٨ و٥٩]

وهلاك الأُمم - ولو كانت قوية - فى ميدان القوة المادية ، أَو كانت على درجة عالية من المعرفة بأُمور الدنيا ، لن يترتب عليه خراب الكون ، أَو انفراط سلك الحياة فى الأَرض ، بل هى أَقل من ذلك وأَدنى شأْنا ، كما قال - تعالى - :

[فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ والْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ] [الدخان : ٢٩]

لأَن الله - سبحانه وتعالى - قادر على أَن يوجد فى الأَرضِ أُمما خيراً منهم ، كما قال :

[فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ .عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ] [المعارج : ٤٠ - ٤٢]

(إن ربك لغفور رحيم)

[وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]

[الأعراف : ١٥٣]

هذه الآية الكريمة فى الذين عملوا السيئات ، أى أَسَاءُوا العمل فيما بينهم وبين ربهم ، ثم تابوا عن العمل السِّىءِ ، وآمنوا ، يذكر سبحانه - وتعالى - أنه لهم غفور رحيم . أى بعد التوبة والإيمان الذى يقتضى العمل الصالح .

وهذا من البشائر للخطائين الذين تابوا وأنابوا بأن يذكروا أن الله - سبحانه وتعالى - غفور رحيم فيطمئنوا ويستبشروا ، ولذلك قال - تعالى -

[نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ]

[الحجر : ٤٩ و٥٠]

فَأَمر نبيه أَن ينبئهم بذلك ، أَو لنقل بلغة هذا العصر ، إِنه أَمر بتبشير عباد الله المؤمنين بمغفرته -تعالى- ورحمته . إِلَّا أَن ذلك لاينبغى أَن ينسيهم أَنه - تعالى - شديد العقاب ، وأَن عذابه لمستحقيه عذاب موجع أَليم . وبين -تعالى- فى آية أُخرى من هم الذين ترجى لهم المغفرة والرحمة ، فقال :

[ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَة ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِن رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]

[النحل : ١١٩]

أَى إِنهم الذين عملوا السوءَ عن جهل وعدم إِصرار عليه ثم تابوا وأَقلعوا عنه وصاروا إِلى إِصلاح ذلك بالعمل الحسن . أَما الذين أَسرفوا على أَنفسهم وبدرت منهم ذنوب كثيرة فإِن الله -تعالى- ذكرهم بقوله الكريم :

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ]

[الزمر : ٥٣ - ٥٨]

فذكَّرهم - تعالى - بأنهم عباده ، وذلك أدعى إلى أن تطمئن قلوبهم إلى الأمل فى مغفرته ورحمته ، وهو - تعالى - وصفهم بأنهم الذين أسرفوا على أنفسهم

وظاهر هذا أنهم اقترفوا الذنوب الكثيرة المتتابعة فيما بينهم وبين ربهم .

ثم نهاهم عن القنوط من رحمته لأنه - تعالى - يغفر الذنوب جميعا ، ولأنه - تعالى - غفور رحيم .

ولكنه فى الوقت نفسه أمرهم بأن ينيبوا إلى ربهم ، أى : يعودوا إليه - سبحانه - بطاعته فيما يأمر ، والانتهاءِ عما ينهى عنه ، وأن يسلموا أمرهم إليه - تعالى - .

ثم أمر - تعالى - أن يتّبع المؤمنون من عباده - ومنهم أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ثم أنابوا إليه - تعالى - ، وأسلموا له - أحسن ما أنزل إليهم من الأعمال الصالحة - حتى يكون ذلك بمثابة تعويض لهم عما فاتهم بالإسراف على أنفسهم ؛ وذلك قبل أن يندموا حيث لاينفعهم الندم .

وفى الآية الكريمة الأخرى وصْفه تعالى لنفسه

الكريمة بأَنه الذى يقبل التوبة عن عباده ، وأَنه هو الذى يعفو عن السيئات . وهو تعالى عليم بما يفعل الناس من خير وشر ، ومن نية فى التوبة ، ونية فى الإِصرار على عمل السوءِ . وهى قوله - تعالى - :

[وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ]

[الشورى : ٢٥]

وهو - سبحانه وتعالى - له الملك الواسع العظيم مما فى السموات والأَرضِ ، سيجزى كل عامل بنتيجة عمله ، من سوءٍ للذين أَساءُوا ، ومن حسنى للذين أَحسنوا وهم الذين يجتنبون كبائر الذنوب ، إِلا ما غلبهم عليه الضعف البشرى من اللمم بالذنوب الصغائر كما قال - تعالى - :

[وَلِلَّهِ مَافى السَّمٰوَاتِ وَمَافى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا

بِالْحُسْنَى . الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى]

[النجم : ٣١ و ٣٢]

فتأمل قوله تعالى :

[إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وإِذْ أَنْتُمْ أَجنةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ]

أى إنه - تعالى - خلق مع ابن آدم وهو جنين فى بطن أُمه غرائز الضعف البشرى من عواطف ، وشهوات ، وميول إلى بعض الأُمور ، لذلك نهى - سبحانه وتعالى - بنى آدم عن أن يزكوا نفوسهم عن الميل إلى الغرائز والشهوات ، وإن كان بعضهم قد يتغلب

عليها بتقوى الله - تعالى - وهو - تعالى - أعلم بمن يفعل ذلك ، وظاهر السياق أنهم هم الأقلية من الناس .

(الإيمان بقضاء الله وقدره)

[قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]

[الأعراف : ١٨٨]

كثيرًا ما يجد المؤمن نفسه يردد جزءًا من هذه الآية الكريمة :

[وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ]

وذلك إذا فاته مغنم ، أو أصابه مغرم فحملته نفسه على الندم على ما فات والتحسر على ما مضى ،

فترد الآية الكريمة إلى نفسه الطمأنينة ، وتذهب عنه الحزن والأسف .

[قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ]

[التوبة : ٥١]

أما ما يتعلق بالمصائب التى تحل بالمؤمن ، فقد أُمر بأن يتذكر أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، بل كل ذلك مكتوب عند الله فى نطاق سنته الكونية التى ليس لها تبديل ولاتحويل .

وهو - سبحانه - إذ كتب ذلك على المؤمن ، فإنه يجب عليه أن يتذكر أن الله هو مولاه ، وأنه يجب عليه أن يتوكل عليه ، ويركن إلى لطفه فى قضائه وإلى حكمته فى أفعاله ، فتطيب نفسه ويهدأ باله ، لاسيما إذا تذكر نعم الله العظيمة عليه ، وحاول

أن يعد منها شيئاً ، لأَنه لا يمكن أن يحصيها كلها كما قال :

[وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَاتُحْصُوهَا]

[فى سورتى : إبراهيم ٢٤ والنمل ١٨]

(العفو والصفح)

[خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ]

[الأَعراف : ١٩٩]

هذه الآية الكريمة وما بعدها تتضمن أَصل الأُصول فى معاملة الناس ، بل هى تعادل دستوراً كاملًا فى هذا الباب ، ولو أَخذ بها كل مسلم لتغير مجرى الحياة فى البلاد الإِسلامية ، ولتغيرت نظرة الغرباءِ عن الإِسلام إِلى المسلمين .

إِن هذه الآية تتضمن ثلاثة أَوامر نفيسة :

أَولها : [خُذِ الْعَفْوَ] أَىْ خذ ما تيسر من الناس

ولاتشطط عليهم ، ولا تشدد فى معاملتك معهم .

والثانى : [وأْمُرْ بِالْعُرْفِ] أى بالمعروف .

والثالث : [وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] أى أعرض عن مخاطبة الجاهلين .

وجماع معنى الآية هو : العفو ، والصفح ، وعدم مؤاخذة الجاهل ، وهو دفع السيئة بالحسنى ، كما قال - تعالى - :

[وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلانِيةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئكَ لَهُمْ عُقْبى الدَّارِ]

[الرعد : ٢٢]

فذكر - تعالى - فى هذه الآية الكريمة دَرْأَ السيئة بالحسنة إلى جانب الصفات العظيمة ، لمن لهم عقى الدار أى : حسن العاقبة فى الأمر .

وافتتح الآية بمدح الذين يصبرون على ما ينالهم

من أذى ابتغاء وجه الله ، وأنهم من الذين أقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقهم ربهم بالسر وبالعلانية . فإنها صفات عظيمة ، ولكنه تعالى عقب على ذلك بقوله :

[وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ] فكأنَّ الآية الكريمة تقول : إنه لايكفى أن يصبر المرءُ على ما يناله من الناس احتسابا لوجه الله ؛ بل الأفضل والأكمل ، أن يدفع السوءَ الذى يصيبه منهم بالإحسان ، لا بسوءٍ مثله . وهذا ورد بصيغة الخبر ، ولكنه ورد فى آية أُخرى بصيغة الأمر ، وهى قوله تعالى :

[ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ]

[المؤمنون : ٩٦]

فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدفع السوءَ بالإحسان ، أى أن يرد على الإساءة بالإحسان ؛ هذه فى سورة المؤمنون .

وفى آيات أُخرى من سورة القصص العود إلى الإخبار عن الذين يؤتَوْن أَجرهم مرتين ، أَى يضاعف لهم الأَجر والثواب بوصفهم بأَنهم صبروا ، الذين يدرؤُون بالحسنة السيئة ، أَى يدفعون السيئة بالحسنة وذلك قوله تعالى :

[أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْن بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَانَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ]

[القصص : ٥٤ و٥٥]

وَتَأَمل قوله تعالى فى هذه الآية :

[وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ]

فكأَن ذلك تمثيل لدفع السيئة بالحسنة .

[وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى

هِيَ أَحْسَنُ إِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيم]

[فصلت : ٣٤ و٣٥]

أَما آيتا سورة [فصلت] فقد ذكرتاَ هذا المعنى بوضوح تام ، فقد ابتدأَهما جل ذكره بقوله :

[وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ]

أَى لوخير أَى شخص عاقل بين السيئةوالحسنة لاختار الحسنة بطبيعة الحال ، ثم قال :

[ادْفَعْ بالَّتى هى أَحْسَنُ]

أَى : عليك الدفع بالتى هى أَحسن ، وهى الحسنة التى هى لاتستوى فى قيمتها وتأْثيرها على النفوس فى الحاضروالآجل مع السيئة ، بل هى أَعلى وأَغلى وأَنفع ، وقد وضح سبحانه بعض نتيجة ذلك العمل العظيم بقوله :

[فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ]

فالمعاملة التى تقلب عداوة العدو إلى وَلاية حميمة ، والوَلاية بفتح الواو هى أعلى درجةً من الصداقة ، هى جديرة بأَن تتبع وتحتذى .

ثم بين تعالى أَن هذا الأَمر ، وإِن كان على هذه الغاية العظيمة من النفع فإِنه لايستطيع أَن يعمل به إِلا مَنْ صبر وضغط على نفسه ، وملك أَعصابه ، وقهر عواطف الانتقام فى نفسه وذلك لايستطيع أَن يكونه إِلا صاحب حظ عظيم فى المعاملة ، وهو أَمر يحتاج إِلى عزيمة صادقة وقوة شكيمة ، ولذلك قال تعالى فى سورة الشورى :

[وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ]

[الشورى : ٤٣]

إِنَّ الرجل المؤمن إِذا اتبع هذه الأَوامر القرآنية فى معاملة الناس ، سواء منهم من كان من المسلمين

ومن كان من غيرهم ، فإنه سيتلافى كثيراً من المخاصمات والمنازعات التى تنغص العيش وتبدد السرور وربما تنشأُ عنها مِحَن ومصائب أَعظم منها .

وهو إذا التزم بهذا الأَدب القرآنى فإن نفسه ستسكن إلى حسن النتيجة ، وستتمتع بحسن العاقبة ، وبذلك تطمئن وترضى .

(المحافظة على النعمة)

[ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]

[الأَنفال : ٥٣]

تطمئن الجماعات والأُمم التى التزمت بأَوامر الله وانتهت عن نواهيه ، بأَن التزمت بالعمل الصالح للدين والدنيا : ستظل فى خير وارف ، ونعمة غامرة من النصر والتأْييد ، إن الله تعالى

لايغير عليها ذلك ، لأَنه تعالى أَخبر أَنه لايغير : نعمة أَنعمها على قوم ، والنعمة هنا مُنَكَّرَةٌ أَى عامة لكل نعمة حتى يغيروا ما بأَنفسهم ، وهوَ تعالى سميع لكل ما يصدر من أُولئك القوم تجاه نعمه ، وهو عليم بمن غيّر ومن لم يغير ، ولو ادعى خلاف ذلك ، ومثلها قوله تعالى :

[إِنَّ اللهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ]

[الرعد : ١١]

وهناك فرق فى مدلول الآيتين الكريمتين ، فالأَولى ظاهرها : أَنها فيمن أَنعم الله عليهم ، أَى : من رزقوا النعمة منه تعالى .

والثانية فيهم وفى غيرهم ، ممن هم على حالة سيئة ومن يمكنهم بما أَعطاهم الله تعالى من قدرة ،

وما سخرلهم من أَشياءَ ، أَن يغيروا ما بأَنفسهم من عمل سيءٍ إلى عمل حسن ، وبذلك يستحقون أَن يكونوا من أَهل الآية الأُولى الذين رزقوا حظاً عظيما من النعم .

ومع أَن هناك أُمماً وأَقواما يعرفون طريق التغيير إلى أَحسن ، بل قد يعرفون أَنهم لايمكن أَن يتغير ما بهم من سوءٍ وضر ، إلا بعد أَن يغيروا ما بأَنفسهم من طبع ردىء وعمل سيء وفقا لسنن الله تعالى فى الكون ؛ فإنهم لايفعلون ذلك ، ولايسعون فى التغيير إلى الأَحسن ، لأَنهم ممن أُريد لهم السوءُ والعياذ بالله ، كما قال تعالى فى هذه الآية :

[وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ]

والمؤمن إذا رأَى حالة قوم من الأَقوام حسنة ، ونعم الله عليهم وافرة ، وقد استبقاها أُولئك القوم

بشكرها بالعمل الصالح للدنيا والآخرة ، ورأى حالة قوم آخرين على نقيض فعلهم ، ثم تأمل هاتين الآيتين : علم الحكمة فى الحالتين ، فطابت نفسه ، وهدأت ظنونه

(الله كافى المؤمنين)

[وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالمُؤمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ]

[الأنفال : ٦٢ ـ ٦٤]

من عرف أن الله تعالى هو حسبه وكافيه هان عليه كيد الكائدين ، وعلم أن خداع المخادعين لن يكون له عليه سلطان ، فهو سبحانه الذى أيد رسوله بالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، وهو قادر فى

كل زمان ومكان على أن يؤلف بين قلوب المسلمين ويؤيد بهم الدعاة إلى الحق إذا حققوا الدعوة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبذلك يتقون كيد الكائدين وخداع المخادعين الذين عليهم أن يدعوهم إلى الله تعالى .

[فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ]

[التوبة : ١٢٩]

وليعلم المؤمن الداعية أنه على الحق وأن الله لن يضيعه ، كما قال :

[فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ]

[النمل : ٧٩]

وقال تعالى :

[وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَايَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا . الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا]

[الفرقان : ٥٨ و ٥٩]

وقال تعالى :

[وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ . إِنه هُوَ السَمِيعُ العلِيمُ]

[الشعراء : ٢١٧ - ٢٢٠]

(تفرق الأُمم والأَهواءِ)

[وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ]

[يونس : ١٩]

لولا إِرادة كونية قَدَرِيةٌ لله تعالى لجعل الناس يبقون كما كانوا فى أَول عهودهم بالحياة أُمة

واحدة ، لكنهم اختلفوا لتلك الإرادة الكونية ، ولذلك قال تعالى :

[وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلَذٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ]

[هود : ١١٨ و ١١٩]

وربما كان فى قوله تعالى : [وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ] إشارة إلى تلك الإرادة الإلهية الكونية القَدَرِيَّة التى ذكرناها . فهو تعالى لو شاءَ لجعل الناس كلهم أُمة واحدة ، مجتمعة على الهدى ، ولكنه تعالى جعلهم ، لايزالون مختلفين لحكمة له بالغة فى ذلك ، إذ لابد من أَن يكون هناك منهم من يستحق نار جهنم ولذلك قال فى آية أُخرى :

[وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ

مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ ، والظَّالِمُونَ مَالَهُمْ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِير]

[الشورى : ٨]

فنى هذه الآية ذَكر المهتدين والضالين ، وكذلك فى الآية التى بعدها .

[وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسَئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]

[النحل : ٩٣]

وأَمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أَن يقول للمعاندين الذين لم يستجيبوا للدعوة ، وأَصروا على إنكار الحجة فقال :

[قُلْ كُلٌّ يعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُو أَهْدَى سَبِيلًا]

[الإسراء : ٨٤]

وفى الأُخرى الثالثة ذكر تعالى ، هذا المعنى وأمر نبيه بما يفعل إزاءَ أُولئك المعاندين :

[لِكُلِّ أُمَّة جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ . وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ]

[الحج : ٦٧ - و٦٩]

وفصل فى الآيتين الكريمتين ذلك الحكم الإلهى العادل يوم القيامة ، فقال :

[مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ]

[الروم : ٤٤ و٤٥]

وقال فى آية أُخرى :

[إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ]

[السجدة : ٢٥]

وأَمر نبيه إِن يخبرهم بأَنَّ كل فريق مسئول عن نتيجة عمله ، إِن خيراً فخير ، وإِن شراً فشرٌّ فقال :

[قُلْ لَاتُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ]

[قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ]

[سبأ : ٢٥ و٢٦]

وأَكد هذا المعنى فى الآية التالية :

[إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنْكُمْ وَلَايَرْضَى

لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ]

الزمر : ٧]

فبين أَنه الله تعالى غنى عن طاعة من أَطَاعه ، ولكنه تعالى لايرضى لعباده الكفر ، وإِنما يريد أَن يشكروه ، لأَن ذلك فى مصلحتهم ، أَما إِذا فعلوا العكس ، فإِنهم لن يضروا إِلا أَنفسهم ، إِذ الوزر على من اكتسبه ، ثم مرجع الجميع إِليه تعالى فينبئهم بما عملوا ، بل بما اختلج فى صدورهم من نوايا ، لأَنه تعالى عليم بذات الصدور .

وأَمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، أَن يدعو بهذا بهذا الدعاءِ الشريف

[قُل اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ عَالِمَ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ]

[الزمر : ٤٦]

هذا على صعيد القول والدعاء ، أما على صعيد الفعل والعمل ، فقد قال تعالى :

[فَلِذَلِكَ فَادْعُ واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَاتَتَّبِعْ أَهوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ]

[الشورى : ١٥]

أليس فى هذه الآيات الكريمة البليغة أعظم هدًى ، وأوضح طريق يسير عليها المؤمن الداعية تجاه المعاندين للدعوة ، والمخالفين للعقيدة ، بلى والله ، وإنه إذا فعل ذلك فسيزول حزنه ، وتسكن نفسه .

(عرض الدنيا زائل)

[إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]

[يونس : ٢٤]

إن حيات الإنسان فى هذه الدُّنيا بما فيها من مغريات ومتع وزينة ، هى مؤقتة وليست دائمة ، بل إنها فى بعض الأحيان سريعة الزوال ، والاضمحلال ، كالعشب الذى نبت بسبب المطر الذى جاءه وأروى أرضه ، حتى إذا ازدهر نباته ، وازدهر منظره أتته جائحة من الجوائح ، من :

جفاف ، أو رياح جافة أو جراد ، أو نحو ذلك ، فاضمحل حتى كأن لم يكن ، ولم يبق لأهله منه . إلا الحسرة والأسف .

[وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا]

[الكهف : ٤٥]

وأصبحت بقاياه هشيما ، تطير من الرياح ، لايقدر أهله عليه ، ولاينتفعون بما بقى منه ، وذلك ليعلم بنوآدم أن الحياة ليست باقية ولاخالية ، بل ليست مما يركن إلى دوامه كما قال تعالى :

[إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُور . سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُو بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْل الْعَظِيمِ .

[الحديد :٢٠ و ٢١]

وفى هاتين الآيتين يذكر تعالى هذا المعنى ، ولكن فيهما زيادة حتى انه على افتراض أن ذلك الغيث الذى هو مثل لزينة الحياة الدنيا لم تصيه جائحة غير عادية ، فإن طبيعته أن يكون ازدهاره إلى أجل ، وبقاؤه إلى غاية محدودة ، فهو يعجب الناظرين ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ، وذلك لأن متاع الحياة الدنيا ما هو إلا غرور من الغرور .

أما النعيم المقيم ، والمتاع الدائم الذى ينبغى أن يسعى العقلاء إليه ، وأن يتسابقوا إلى تحصيله ،

فذلك هو طلب المغفرة من الله ، وطلب الجنة التى عرضها السموات والأَرض .

وقد وجدنا نحن فى عصر جعلنا أَكثر تصوراً لسعة السموات والأَرض ممن سبقنا من الأُمم ، وذلك بسبب الاختراعات الحديثة وعلوم الفضاءِ المستحدثة التى قربت للعين البشرية البعيد ، وقربت للخيال البشرى الأَبعد منه ، فإِذا هو يكتشف أَن الفراغ الذى بين هذه الأَرض وبين السماءِ الدنيا إِنما هو فراغ هائل طائل ، قد يجد العقل نفسه عاجزاً عن تصوره التصور الكامل ، وما بالك بمسافة تفوق مسافة مئات الأُلوف من السنين بالسرعة الضوئية التى هى سرعة البرق .

ولك أَن تتصور شيئا من عظمة الخالق سبحانه ، وأَن تتصور من شيئا صغر الآدمى المخلوق فى حد ذاته ، وأَنه إِنما صار عظيم الحق بما أَعطاه الله تعالى من عقل وعواطف .

ثم لك أن تتصور بعد ذلك سعة تلك الجنة التى هى فى عرض السموات والأرض ، وتتصور أنه لو دخل جميع أهل الأرض من بنى آدم - منذ أن بدأت حياة أبيهم آدم على هذه الأرض إلى - تلك الجنة ، فإن كل واحد منهم سيجد فيها له ما يعجز عقله عن إدراكه ، من اتساع المساحة وفنون الحياة التى لا يعلمها إلا خالقها . إن جنة بهذا الوصف لحرية بأن يتسابق الناس إليها وأن يسعوا إلى رضوان الله الذى جعل إدراكها مشروطا به ، أى هذه الحياة الدنيا الفانية المحدودة فى مساحتها وزمنها وكل شىء مادى فيها ، فإنه لا يغتر بها إلا مغرور لم يرزق حظاً من العقل الوافر ، ومن التوفيق الإلهى الهادى إلى الصواب .

ولذلك نهى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وهاديا ومرشداً إلى الصراط المستقيم - أن يغتر بتلك الحياة الدنيا

ويركن إليها ، فقال تعالى :

[ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى]

[طـه : ١٣١]

فمتاع الحياة الدنيا يعطاه العاصى كما يعطاه الطائع ، ولكن الذى لاينبغى للمؤمن أن يفعله هو أن يغتر بذلك ، وأن يركن إليه حتى يُنْسِيَهُ آخرته ، وحتى لايسعى فى تحصيل النعيم المقيم فى الدارالآخرة ، ولذلك ورد الإخبار عن مثل الحياة الدنيا فى الأبيات السابقة بصيغة التعميم ، وليس بصيغة التخصيص .

أما فى هذه الآية الكريمة ، فقد خصص المؤمن بالنهى عن الاغترار بمتاع الحياة الدنيا ، الذى يعطاه الكافرون

وكيف لا يُنْهَىٰ المؤمن عن ذلك ، ومتاع الدنيا

ينْفَدُ ويضمحل ، وإنما الذى يبقى هو العمل الصالح ، وهو الذى يجعل الحياة الدنيا طيبة فيجلب السعادة لمن عمله من ذكر وأُنثى ، وإلى جانب عاقبته المحمودة فى الدار الآخرة ، كما قال تعالى :

[مَاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسنِ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ] [النحل : ٩٦ و٩٧]

أَليس حريا بالمؤمن الذى يتأَمل هذه الآيات الكريمة ، ومافيها من وصف لمتاع الحياة الدنيا وما فيها من ذكر لنِعم الآخرة أَن يطمئن إلى مما وعده الله من الخير ، وأَلَّا يَحْزَنَ على ما فاتَه من نعيم مادى عجز عن أَن يحصل عليه ، وبذلك تسكن نفسه وتطمئن ، فلاتجزع ولاتأْسف .

(طريق الدعوة إلى الله)

[ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ]

[النحل : ١٢٥]

الطريقة المثلى للدعوة التى تكفل النجاح للمؤمن الداعى لربه - وكل مؤمن ومسلم مدعو للقيام لله ، بإبلاغ ما يعلمه من دينه إلى من لايعلمون بحسب طاقته وقدرته - وفى الوقت نفسه تكفل له تجنب الكثير من المتاعب والمصاعب ، وتجلب الكثير من المصالح والمنافع قد رسمها القرآن الكريم فى هذه الآية الكريمة ، وما سنتلوه عليك من أخوات لها كريمات.

ذلك بأنه تعالى يقول : [ادعُ إِلَى سَبيل رَبِّكَ] وهذا خطاب موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ولكنه موجه إلى جميع أُمته وأَتباعه من المسلمين ، لأَنه لم يرد دليل على تخصيصه به ، دون أُمته ، وبدليل قوله تعالى فى آية أُخرى :

[قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى]

[يوسف : ١٠٨]

فسبيل كل مسلم وطريقه أَن يدعو إلى ربه ، أَو بعبارة من عبارات هذا العصر : أَن كل فرد من المسلمين ينبغى أَن يكون مبشراً : أَى بالإِسلام : أَى داعية إِلى دين الله .

ثم بين تعالى فى هذه الآية أَن الدعوة إِلى سبيل الله يجب أَن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه المناسب له ، من حيث الأَحوال الحاضرة ، والنتائج المتوقعة ، والموعظة الحسنة ، هى الموعظة باللين وعدم العنف ، ومعرفة وقتها المناسب ، وما يناسب أُصول المدعوِّين من طرق مختلفة ، قد يصل اختلافها إِلى درجة

التناقض ، فلايؤلف بينها إلا الموعظة الحسنة .

أما إذا كان الأمر يتطلب جدالا ونِقاشا ، لإظهار الحق بأن لج الخصوم ، وكابروا وأوردوا شبها لابد من دحضها وكشف زيفها بالجدال والنقاش ، فليكن ذلك الجدال بالتى هى أحسن ، أى بأحسن الطرق لإيضاح الحق ، وعدم تغيير المدعوين ، من قبوله وعدم اللجوء إلى العنف فى النقاش عندما يشعر الداعية أن اليأس قد بدأ يدب إلى نفسه من هدايتهم ، لأن الله تعالى هو أعلم بالمهتدين ، وهو أعلم بالضالين ، وهو أعلم بمن يرجى أن يهتدى ومن لايكون كذلك .

أما من عجزت محاولات الموعظة الحسنة عن إيقاف جداله ، وكبح جماح لجاجه ؛ فإنه لامانع من الانتصار منه بالقول الأشد . والقوة الأنكى ، له وان كان ذلك هو الاستثناء وليس القاعدة كما فى الآية الكريمة التالية :

[وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَاب إِلَّا بالَّتِى هىَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمنَّا بِالَّذى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وإِلٰهُنَا وإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ]

[العنكبوت : ٤٦]

أَرأَيت بلاغة هذا الأُسلوب وجماله وإِنصافه . فالمجادلة تكون بالتى هى أَحسن ، إِلَّا فى الحالات الإِستثْنائية التى يتعدى فيها الخصم حده فيظلم الداعية ، فلا مانع من رد ظلمه .

ثم هذا القول الذى يقتضى بيانه المشاركة فى الشعور بما يؤمن به الخصمان معا ، وهو بالنسبة لأَهل الكتاب إِيمان المسلمين بما أَنزل الله إِلى الرسل كلهم ، ثم تذكيرهم بأَن إِلٰه الجميع هو الله تعالى

وكل داعية مسلم تبع هذه الطريقة ، وسار على هذا المنهج ، وعمل صالحاً فى نفسه ومع غيره ،

وفى أمور دينه أو دنياه ، فإنه المثالى الذى لا أحسن قولاً منه كما قال تعالى :

[ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَاإِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ]

[فصلت : ٣٣]

(طول النفس فى الدعوة)

[وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُ فى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ]

[النحل : ١٢٧و ١٢٨]

هاتان الآيتان الكريمتان فى الصبر على مكر أعداءِ الدين ، وعدم الضيق بمكايدهم .

وهما من الآيات التى ينبغى أن يتخذها المؤمن الداعية الصادق الإيمان نصب عينه ، وقبلة اهتمامه .

وهما من آيات بث السكينة فى النفس ، وبعث الاطمئنان فيها .

فنى أُولاهما يقول تعالى [واصبر وما صبرك إِلَّا بالله] أَى : اصبر على ما تلقاه فى سبيل الدعوة ، وإنك لاتستطيع أَن تصبر كل ذلك الصبر ، إِلا بتوفيق من الله الذى أَنزل عليك الصبر ، بسبب قيامك له تعالى بواجب الدعوة والبلاغ .

ثم يقول تعالى بعد ذلك [ولاتحزن عليهم] أَى لاتحزن على ما فاتهم من الخير الذى تريد أَلا يفوتهم ، من الهداية إِلى طريق الحق والرشاد ، وبعده : [ولاتك فى ضيق مما يمكرون] . أَى : ولا يضيق صدرك بما يعدُّونه من مكر ومكيدة لك ولمن اتبعك من أَهل الخير .

هذه الآية الأُولى الكريمة ، فيها الأَمر بالصبر ، وعدم الحزن ، والضيق بمكر الأَعداء ، فهل المطلوب من المؤمن ذلك ، دون أَن ينظر إِلى شىءٍ آخر ؟

وإذا كان الجواب بالإيجاب ، أفلا يورد بعض الملحدين شبهة على ذلك - بأن الداعية إلى الإسلام أُمر بأن يكون سلبيا ، حيث يصبر ولايحزن ؟ .

والجواب يكون فى الآية الكريمة الثانية ، التى وردت بعد هذه الآية لحكمة عظيمة وأمر خطير ، وهى قوله تعالى : [إِنَّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَوْا والذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ] .

ومعنى الآيتين معاً أن المؤمن إذا اتقى الله بما تدل عليه كلمة التقوى من طاعة الأوامر واجتناب المناهى ، وأحسن العمل لأخراه ودنياه فيما لايتعارض مع أُمور أُخراه ، وأحسن العمل للدعوة ، فإن الله معه ، فلاينبغى أن يحزن ولا يضيق صدره بمكر الأعداءِ ، لأن العاقبة الحميدة ستكون له حتما ، لأن الله معه ، ومن كان الله معه فإنه لاخوف عليه ولاحزن .

وينبغى أن نذكر هنا : إذ حسن الاستعداد المادى لملاقاة الأعداءِ بكل ما يستطيعه المسلمون ، هو من

الإحسان فى العمل الذى أمر به المتقون، بدليل قوله تعالى فى آية أُخرى .

[وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة]

وورد الأَمر بالصبر على كيد الأَعداءِ وعدم الضيق بمكرهم فى آية أُخرى، وهى قوله تعالى :

[وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمكُرُونَ]

[النمل : ٧٠]

أَما الأَمر بالصبر على ما يقوله الأَعداءُ ويبثونه من مفتريات ، فقد ورد فى آيات عدة مقرونا بالأَمر بذكر الله تعالى من التسبيح والتحميد ، الذى هو عدة من أَعظم عُدَدِ المؤمن التى تقوى بها نفسه ، ويعدها للصبر ومواجهة الصعاب ، وذلك مثل قوله تعالى :

[فَاصْبرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى]

[طه : ١٣٠]

وقوله تعالى :

[فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ الْغُرُوبِ

[قٓ : ٣٩]

وقرن سبحانه وتعالى الأَمر بالصبر بالأَمر بالثبات على الحق ، وعدم التأَثر بما يقوله أَو يفعله الكافرون ، فقال :

[فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَايَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَايُوقِنُونَ]

[الروم : ٦٠]

(هل تعود فلسطين ؟)

[سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ ، أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا. ذُرِّيَةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا. وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ

وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا]

[الإسراء : ١ — ٧]

كل مسلم مهتم بأمر المسلمين يعانى فى الأزمنة الحديثة ، ومايزال من الضيق والكدر ما الله به عليم بسبب استيلاء اليهود على المسجد الأقصى ، بل إنه فى بعض الأحيان يساءل نفسه : أهو فى حلم أم فى حقيقة ؟

وهل صحيح أن جماعات من اليهود تجمعت من بلاد شتى من العالم — بل من زوايا العالم — لكى تغزو أمة الإسلام وتهزمها وتطرد أهل الأرض المقدسة فى فلسطين ، وتقيم مكانهم فيها دولة يهودية متعصبة ليهوديتها ، تمحو آثار الإسلام وتقضى على لغة القرآن فيها ؟

ويتساءل : أين كان المسلمون فى ذلك الوقت؟

وأين كان عددهم وعديدهم ؟ ؟

وأين كان ساستهم وعلماؤهم وقادتهم الحربيون؟

ولكنه ما إن يرجع إلى عقله ، ويحكم تفكيره حتى يتيقن من أن ما ظنه حلماً ، هو حقيقة ،وأن اليهود الآن قد أقاموا دولتهم فى فلسطين ، واستولوا على المسجد الأقصى . بل واستولوا معه على أجزاء أخرى من بلاد المسلمين غير فلسطين ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما أصبحوا يتطاولون ، ويهددون ، ويتوعدون ويحقرون المسلمين بدولهم ، وأموالهم ، وبلدانهم الشاسعة الواسعة .

بل ويصولون ويجولون فى أنحاء الدنيا ينشرون ذلك التحقير للمسلمين ، والتصغير من شأنهم ، لايردهم عن ذلك راد من إرادة إسلامية ، ولايردعهم عن عملهم رادع من قوة إيمانية .

بل يجد أن بعض ساسة العرب أنفسهم أخذوا يساعدونهم على ذلك ، من حيث لايشعرون ، يزعمون أن ذلك من السياسة ، فيظهرون بمظهر المسكين

المسكين العاجز المغلوب على أمره ، الذى يستدر عطف العالم ، لعل ذلك العطف يضغط على خصمه ، فيسلم بإعطاء بعض حقه . فيشعر المسلم لذلك بالمهانة والضعة ، والصغار ، ويسأل نفسه : كيف أتى ذلك علينا نحن الذين كانت لنا عزة النفوس وإباء الضيم والإقدام على الخصوم الأقوياء فى معاقلهم عندما كنا متمسكين بأمر الله ، سائرين على هدى رسوله صلى الله عليه وسلم وكيف أصبحنا اليوم ونحن نستدر عطف بعض دول العالم التى هى فى الحقيقة تكن لنا - بدافع خوفها من قوة الإسلام وحقدها التاريخى عليه ما نكره من الأمر ، فنستدر عطفها لكى تسأل عدونا اليهودىّ أن يتنازل عن بعض ما انتهبه من حقوقنا ؛ حتى إذا لان جانبها ، لسبب من الأسباب ، وأصدرت تصريحا كلامياً - من جملة أو جملتين - طرنا بها وفرحنا ، وملأنا الدنيا صخبا وغناءً بالفرح بل وجعل زعماء بعض

دولنا يوهمون الناس من حولهم بأنهم حققوا نصرا مبينا وفتحا عظيما ، مع أن ذلك كله ليس إلا كلام طار به الهواء وضجيجاً يخبو بعد حين .

ونحن نفعل ذلك مع أننا أكثر عدداً ، وأثرى مالا وأوسع أرضا ، وأغنى موارد ، والعالم يعرف ذلك . وهذا أيضاً مما يزيد المسلم شعوراً بالمهانة والضعة .

ويرجع المسلم إلى عقله الواعى ليتبين أسباب النكبة ، وليُبْصِرَ كيف حدثت فيهديه تفكيره الثاقب وبصيرته النافذة ، إلى أن الإسلام لم يُهْزَمْ ، وأن المسلمين الحقيقيين لم يقاتلوا اليهود ، فضلا عن أن يهزموهم ، وأن الذين قاتلوا اليهود أو أظهروا أنهم قاتلوهم إنما هم أناس لم يُرَبَوْا تربية إسلامية صحيحة ، ولاعملوا عملا إسلاميا صحيحا ولم يحشدوا جميع ما لديهم من قوى معنوية ومادية لهذه المعركة ، فهم كانوا كما قال الشعبى : « ليسوا من الأتقياء البربرة ، ولا من الأقوياء الفجرة » فلم

يأخذوا من الأَسباب المادية بما أَخذ به أَعداؤهم ، ولا من الأَسباب المعنوية الروحية ما أَخذ به أَسلافهم

وحين يتذكر المسلم ذلك يهدأ خاطره قليلا ويطمئن إِلى إِسلامه الذى هو سلاحه الحقيقى ضد أَعداءه ، وأَنه الذى سيحرر المسجد الأَقصى وغيره من ديار الإِسلام من اليهود ، ثم ينظر إِلى الحالة الحاضرة إِلى المسجد الأَقصى أَسيراً فى يد أُولئك اليهود الذين هم كانوا من أَذل أُمم الأَرض ، وأَدناها منزلة ، حتى أَنهم لم يستطيعوا أَن يؤسسوا لهم دولة فى العصور الحديثة ، ولا فى أَطراف الأَرض النائية ، وينظر إِلى حالة بلاد المسلمين التى يتزايد عدد أَفرادها ، وتعظم ثرواتها ، وتتسع رقعتها بما يتحرر منها من الحكم الأَجنبى يوما بعد يوم ، ولكن ذلك كله لم يكسبهم القوة ضد أَعدائهم ولا اتخذوه سلاحاً يشهرونه أَمام اليهود ، بل إِنه يراهم يزدادون فى بعض الأَحيان تخليا عن أَسباب القوة ، وبُعداً عن مقَوِّمات

النصر ، فيضيق صدره ويتكدر عيشه ، ويساءل نفسه : أما لهذا الليل من آخر ؟

أما لهذه الغمة من جَالٍ ؟

متى يبصر أبناء الإسلام حقيقة القوة ومتى يأخذون بها ؟ ومتى يرجعون إلى ربهم ؟ وإلى منابع أصالتهم وعزهم ؟

ثم يتساءل بعد ذلك : أليس فى كتاب الله تعالى ما يمكن تفسيره بما ينطبق على الحالة الحاضرة فى المسجد الأقصى وبلاد المسلمين التى أخذها اليهود ؟

وهل فى سنة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما يشير إلى تلك الأحداث ، من تجمع اليهود فى هذه البلاد ، ثم قيام دولتهم ، وقتالهم للمسلمين ؟ ؟

وأياً كان الأمر ، فإلى متى يظل اليهود فى المسجد الأقصى ، ومسيطرين على ذلك الجزء من بلاد المسلمين ؟ وهل يطول عهدهم أم يقصر ؟ وعلى يد

من يكون بتره أو إضعافه إذا قدر عليه أن يقضى عليه - أو قدر أن يضعف ؟

إن الإجابة بالتفصيل على هذه الأسئلة المفصّلة لهى من الأمر المستحيل ،لأنها تتضمن التساؤل عن نتائج مبنية على مقدمات لايمكن الجزم بوقوعها ولابتحديد وقتها إذا وقعت ، فيرجع المؤمن إلى كتاب الله تعالى يستجلى آياته ، ويتأمل مناحى دلالاتها ، فلايلبث أن يجدها فى هذه الآيات الكريمات من سورة الإسراء ، ويجد ما يستشهد به لتفسيره بعض معانيها فى أحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فكيف ذلك ؟ وأنه - والله أعلم بمراده - فى التفسير التالى :

يفتتح المولى عز وجل سورة الإسراء بذكر المسجد الأقصى وما حوله ، ليعلم أن الكلام فى الآيات التى تليها يدور حوله ، وفى الآية الثانية من السورة يذكر موسى عليه السلام وبنى إسرائيل ،

لأَن الكلام بعدها سيكون عنهم وعن علاقتهم بالمسجد الأَقصى وما حوله ،ثم بعد ذلك يقول تعالى

[وَقَضَينا إِلى بنى إِسْرائيل فى الكتاب]

أَى : قدرنا ، وأَردنا إِرادة كونية قَدرية

[لِتُفْسِدُنَّ فى الأَرضِ مرتين ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيرا]

فذكر إِفسادهم فى الأَرض مرتين ، وذكر مع الإِفسادِ العلو الكبير ، فكان إِفسادهم إِفساد القوى الجبلية كالسباع الضارية — وليس إِفساد الضعيف ، كما يكون إِفساد الفأرة ونحوها — ولذلك قرَنَ الإِفساد منهم بالعلو ، ثم أَكد العلو بالمصدر ، ووصفه بالكبر أَى : الكثرة إِلى جانب القوة ، ثم قال :

[فإِذاجَاءَ وَعْد أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيكمْ عِبَاداً لَنَا]

ونعتقد أَن أَولئك العبادهم بختنصر وقومه من أَهل بابل وقيل من أَهل العراق الذين فعلوا ببنى إِسرائيل الأَفاعيل من تقتيل الرجال وسبى النساءِ والأَولاد ،وتخريب بيت المقدس وإِحراق كتبهم وتأَمل قوله [عِبَادًالَنَا] فذكر

العبودية العامة هنا ، التى هى عبودية جميع الناس له سبحانه وتعالى مما يدل على أن أُولئك الذين سلطوا على بنى إسرائيل [فى المرة الأُولى] لم يكونوا من أتباع الرسل ، ولم يكونوا أهدى من بنى إسرائيل سبيلا ، وذلك بخلاف إضافة العباد إليه ، التى تعنى العبودية الخاصة مثل قوله تعالى :

[وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا]

ومثل قوله تعالى :

[يَاعِبَادِ لاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتَمْ تَحْزَنُون]

فأُولئك من عباد الله المخلصين أتباع الرسل ، ثم وصف العباد الذين سلطوا على بنى إسرائيل بأنهم [أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَار] أى : كرروا تخريبها ، ثم قال : [وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا]

أى : قد فعل ، وبذلك انتهى أمر أولى المرتين وذاقوا عقابها . قال تعالى

[ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ]

أى : على أعدائكم الذين أرادوا أن يمحوكم من الوجود . ثم قال :

[وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ]

فنوه تعالى فى هذه الآية بما يسبق المرة الآخرة من إمدادهم بالأموال ، وذلك يشير - والله أعلم - إلى ما عليه اليهود من ثراءٍ ، وما استطاعوا أن يسخروه من أموالهم لأغراضهم الدنيوية ، أو قل : إنهم كانوا - قبل إنشاءِ دولتهم بأوقات قليلة كانوا - يبلغون من النفوذ على الزعماءِ فى سائر الأمم ما لم يكن يستطيع غيرهم أن يبلغه بالحروب ، حتى فى هذا الوقت الحاضر ، فإن معظم سيطرتهم على الأمور

فى كثير من البلاد لم تكن بكثرة عددهم ، وإنما كانت بسبب أموالهم ، وبسبب معرفتهم بكيفية تسخير أموالهم للوصول إلى أهدافهم ، فعن طريق أموالهم صار لهم - على سبيل المثال - تأثير على أكثر مجالات الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الوقت الحاضر - من : الجامعات ، ومعاهد التعليم ، إلى الصحف ، ودور النشر ، إلى شركات الإذاعة المرئية ، والمسموعة ، إلى غير ذلك .

وبعبارة أوضح : يمكن مقارنة ذلك بمقارنة أثر الأموال التى عند أعدائهم على العالم بأثر الأموال التى هى عندهم .

فالعرب يملكون - فى الوقت الحاضر - من الثروات أكثر مما يملك اليهود ، ولكن اليهود يسخرون أموالهم لخدمة مآربهم أكثر من العرب أضعافا مضاعفة ، بل لامجال للمقارنة ، وقد يبلغ الأمر إلى حد القول : إن اليهود فى البلاد الرأسمالية

قد يستفيدون بطرق غير مباشرة من أموال العرب أنفسهم ، بسبب معرفتهم ، بطرق تدبير الأموال . والعرب إنما يستفيدون منها استفادة مادية محضة .

والخلاصة أن تنويه الآية الكريمة بإمداد اليهود بالأموال يشهد له أهمية المال الذى بين أيديهم وتأثيره لمصلحتهم ومصلحة إقامة دولتهم .

بل إنهم سخروا أموالهم لفسادهم فى الأرض ، فبواسطة الأموال فتحوا دور اللهو ، ونوادى التعرى ، وأنتجوا الأفلام الخليعة ، وطبعوا الصور والمجلات الماجنة ، ونشروا الكتب التى تدعوا إلى الإنحلال والفساد ، وذلك فى جميع البلاد التى لهم فيها نفوذ ، وبخاصة تلك التى تبيح أنظمتها حرية القول ، وتحمى أىّ تحرك للأفراد ؛ ذلك إلى جانب إفسادهم السياسى عن طريق إرهاب الساسة الذين لايسعون فى مصلحتهم وذلك بتسليط الصحف عليهم ، وينشق أكثرهم عليهم ، ثم إسقاطهم فى عقر دارهم ، كمايفعلون

الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ونوه تعالى أيضاً فى الآية بذكر النبيين بقوله [وأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ] وذلك لأنه من المعروف أن اليهود ليسوا من الشعوب التى يتكاثر نسلها بسرعة ، بل ربما يمكن القول أنهم من أقل الناس نمواً إذا قيس نموهم العددى بنمو أى شعب آخر ، كأن مماثل عدده عدد اليهود منذ عشرةقرون ، أو نحوها .

ومع ذلك فإنهم فى هذه الأزمنة الحديثة رزقوا بعدد من البنين ، وبتجمع من السكان لم يتهيأ لهم فى أى وقت من الأوقات فى الماضى . ثم قال تعالى : [وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا] والنفير هم الذين ينفرون للحرب ونحوها ، أى : يخرجون للحرب ونحوها ، ولو جاز لنا أن نضرب مثلا من الواقع على ذلك لقلنا إن ذلك يمكن ملاحظته فى الحرب التى وقعت بين العرب واليهود ، فقد كان مجموع عدد اليهود

أقل بعدة مرات من مجموع عدد العرب ، ولكن كان عدد الذين نفروا للحرب : أى جندوا للقتال من اليهود أكثر من عدد الذين نفروا إليها وجندوا لها من العرب .

إن كل الأمور التى سبق ذكرها : من رد الكرة لبنى اسرائيل على أعدائهم ، ومن إمدادهم بالمال والبنين ، وجعلهم أكثر نفيراً من غيرهم ، إلى جانب ما كان لديهم من الاستعداد للإفساد فى الأرض ، والقوة على إخراج ذلك الإفساد إلى حيز الوجود : كل ذلك مما يؤهلهم لإقامة دولة لهم ، لاسيما إذا كان أولئك الذين ستقام دولة اليهود على أرضهم هم فى حالة من الضعف وعدم استطاعة منع اليهود بسبب إضاعتهم لأسباب قوتهم الروحية والمعنوية ، وسبب تفرق كلمتهم وتشعب أهدافهم ، وتهيئة ذلك بتسلط الأعداء عليهم ، وتمكنهم من السيطرة على بلدانهم ، ومن التحكم فى مناهج تربية أبنائهم

لذلك قامت دولة اليهود ؛ بل لم يقتصر الأمر بهم على إقامة دولة لهم ، وإنما استطاعت تلك الدولة أن تملك أسباب التوسع والغزو . وتوسعت وغزت بالفعل

وبعد ما نفهم ذلك من تفسيرنا للآيات الكريمة هذا التفسير ، نعود إلى تلاوتها فنجد قوله تعالى :

[إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فلها]

وذلك بعد قوله :

[ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا]

فنجد فى ذلك إشارة إلى أن دولة اليهودسيكتب لها البقاءُ ما شاءَ الله أن يكتب لها ، ولايستطيع أحد أن يتكهن بمقدار تلك المدة ، فقد تكون قصيرة غاية القصر بالنسبة إلى عمر الدولة ، وقد تكون أطول من ذلك ، لأنه تعالى قال :

[إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فلهـا]

وذلك إشارة إلى أنه فى تلك الفترة ستكونون خاضعين لسنن الله فى الكون التى لا تتغير فى إثابة من أحسن العمل بجزاءٍ حسن على عمله ، سواء أكان عملا ماديا أم معنويا ، وبجزاء من أساء العمل جزاءا سيئاً : أى كما يكون للناس ،[كل الناس ، فى كل الأقطار ، وفى جميع الأزمان] والمراد أنه لاتقع أحداث خطيرة [وبعبارة حديثة أحداث مصيرية] مثل إقامة الدولة وسقوطها .

هذا كله قبل وقوع المرة الثانية من العقاب على إفساد المرة الثانية .

أما العقاب فنأخذه فى فهمنا لتفسير آخر الآية السابعة من سورة الإسراء ، وهى قوله تعالى :

[فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا] .

ونفهم أَن المرة الآخرة هى التى لم تقع بعد ، وهى ستأتى حتما بدليل قوله تعالى :

[فَإِذَا جَاءَ وعْدُ الْآخِرةِ لِيَسُئُوا وُجُوهَكُمْ]

أَى : ليسوءَ أَعداؤكم وجوهكم ، والدليل على أَن فاعل يسوء هم أَعداء بنى إِسرائيل ، وأَن الذين ستساءُ وجوههم هم بنوا إِسرائيل : أَنه سبق فى هذه الآيات ذكر أَعدائهم بضمير الجمع ، ومعنى يسوءُوا وجوهكم : يُروها ما ساءها من الهزيمة ، والإِنكسار ، والذلة ، بل وربما كان ذلك بأَصناف من العذاب النفسى والجسدى فى الحروب ، وفى قوله تعالى :

[وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوّلَ مَرَّةٍ]

مع كونه لم يذكر دخولهم للمسجد صريحا فى المرة الأُولى ما يفهم منه أَنّ ذلك إِشارة إِلى أَن الذين

سَيَغْلِبُونَ الْيَهُودَ فى هذه المرة هم من أهل المسجد ، أىْ من أُمّة الإسلام .

وفى آخر فقرة من الآية مايؤكد هزيمة اليهود هزيمة ساحقة لهم ، ونصر أعدائهم نصراً فاصلًا ، وهو قوله تعالى

[وَلْيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا]

والتتبير فى الغة هو الهلاك .

وهذا معناه أنهم سيهلكون كل شىءٍ لكم ، بما فى ذلك قوتكم الحربية ، وربما مصانعكم ، وغير ذلك مما كنتم تستعملونه فى قتالكم معهم .

وهكذا انتهت هذه الآياتِ الكريمة من أول سورة الإسراءِ ، وهى تحكى قصة بنى إسرائيل ، وقصتهم مع بيت المقدس .

ويزيدنا دلالة على ذلك آية وردت فى آخر السورة نفسها ، وهى قوله تعالى :

[وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا]

[الإسراء : ١٠٤]

ونفهم تفسير هذه الآية بأَن المراد بوعد الآخرة ، ذلك الذى ورد فى الآية السابعة من سورة الإسراء ، والذى سبق الكلام عليه .

وأَما تفسير بعض المفسرين ذلك بأَنه المراد به يوم القيامة ، فإنه يرد عليه من وجهين :

الأَول : البعث فى الآخرة أَمر عام لجميع بنى آدم ، وليس خاصاً ببنى إسرائيل .

والثانى : أَن لفظ [وَعْدُ الآخرة] الذى ورد فى هذه الآية هى نفس لفظ [وَعْدُ الآخِرَةِ] الذى فى الآية السابقة ، ولا يمكن القول فيه : إنه يوم القيامة ، لأَن الله تعالى قال :

[فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّة ، وَلْيُتَبِّروا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا]

وواضح أَن ذلك فى الدنيا :

ولذلك نقول إن مما يؤيد ذلك :

[وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى اسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا] .

[واللفيف هو جماعات الناس ، وهذا هو ما وقع فعلًا ، فقد كان اليهود يأتون إلى فلسطين من أَنحاءِ الأَرض لفيفا . [أَى : جماعات جماعات] من جميع أَنحاءِ العالم تقريبا

ويدل على ذلك ما جاءَ فى الحديث الصحيح :

[لَاتَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ]

هكذا فى صحيح مسلم .

وفى صحيح البخارى

[يُقَاتِلُ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُونَهُمْ فَيُسَلَّطُونَ

عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا عَبْدَ اللهِ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِى خَلْفِى فَاقْتُلْهُ]

فى هذا إشارة إلى إنشاءِ دولتهم ، إذ كيف يقاتلون المسلمين دون أن تكون لهم دولة تجمعهم وتحميهم .

وعلى هذا فإن أمر اليهود فى المستقبل سيكون إلى تبار وهلاك ، حسبما فهمناه من هذه الآيات الكريمات .

وإذًا ينبغى للمؤمن إذا تأملها أن يقل ضيقة ، وأن يخف حُزْنُهُ .

ولكن ليس معنى هذا أن يكون موقفه سلبيا ، بل يجب أن يأخذ بأسباب النصر التى يمكن تلخيصها فى تلاوة قوله تعالى :

[إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ]

فيأخذ بتقوى الله ، وبإحسان العمل لدنياه ،

لدنياه ، بجميع أنواعها الإحسان ، فى كل الأعمال وعلى رأسها الاستعدادُ الحربى الاقتصادى ، وتنشئة الأجيال المسلمة على روح الجهاد .

والله المستعان .

(التفاضل بين الناس)

[انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا]

[الإسراء : ٢١]

إن تفاوت حظوظ البشر فى الْخَلْق الجسمانى . والخُلُق النفسانى ، لهو عظيم يستحق أن يتأمله الإنسان ، وأن يتفكر فى تباينه ، وليس ذلك فحسب ، بل إن التفاوت فى الأرزاق الذى سببه التفاوت فى المواهب ، هو عظيم أيضاً .

ومع ذلك التفاوت العظيم فى الخَلْق — بفتح الخاء وسكون اللام — والخُلْق — بضم الخاء واللام —

فتفاوتهم فى الدرجات فى الآخرة أكبر وأعظم .

أمَّا التفاوت فى الأرزاق فـ :

[إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا]

[الإسراء : ٣٠]

فهو سبحانه وتعالى خبير بعباده ، بصير بمن يستحق أن يكون منهم ذا حظ عظيم فى الرزق . ومن يكون منهم رزقه مقدراً محدوداً .

وقد يعجب المرءُ لهذا التفاوت فى الرزق ، ولكنه إذا تأمل التفاوت فى المهارات والقُدْرات الذهنية والجسمية ، التى هى من أصل الخلقة ولايد للإنسان فيها ، خف عجبه وتساؤله .

[أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؛ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ]

[الزخرف : ٣٢]

فالذى قسّم بين الناس معايشهم فى الحياة ، هو الذى قسّم بينهم مواهبهم وقُدْرَاتِهِمُ العقلية ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، لكى يوجَد لكل عمل عاملٌ مناسبٌ لَهُ .

(الاقتصاص من الباغى)

[وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَد جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلايُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا]

[الإسراء : ٣٣]

هذه بشارة داعية للإطمئنان بأَن الله تعالى سينصر ولى كل شخص قتل مظلوما ، وذلك بأَن يجعل له سلطانا من الشرع ، أَو سلطانا من القدرة

الإلهية ، حتى يأخذ من القاتل حقه ، لذلك لاينبغى له أن يشتط فى العقوبة ، أو يأخذ أحداً بجريرة غيره ، مادام أنه يعلم أن الله سينصره ، ويجعله يظفر بالقاتل عن طريق سلطان الشرع .

ولكن كيف يكون اقتصاصه واقتصاص غيره من الأفراد المجنى عليهم ؟

[ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلَ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ]

[الحج : ٦٠]

إن من عاقب ، سواء بسلطانه - إذا كان الشرع يخوله ذلك ، والسلطان الشرع - بمثل ما عوقب به ، أى : بأن اقتص من الجانى بعمل مثل عمله ، ولم يتجاوز ذلك بدافع تحكم عواطف الانتقام فى نفسه ، ثم بُغى عليه ، فإن الله تعالى لاشك سينصره وسيعطيه من السلطان ما يمكِّنُهُ من أخذ حقه الذى

أعطاه الشرع إياه ، فليطمئن لذلك ، ولتسكن نفسه لهذا الوعد الحق .

(الرُّوح)

[وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا]

[الإسراء : ٨٥]

شاءَ الله تعالى أَن يُبْهِم أَمر الروح على الناس فى هذه الآية الكريمة ، إِذْ قال : [مِنْ أَمر ربى] ولم يقل : مِن خلق ربى ، أَو ما شابه ذلك ، مما قد يكون فيه شىءٌ من الوصف والتحلية .

ثم ختم الآية بجملة تقنع قارئَ الآية أَو سامعها إِقناعا نفسيا بهذا الإِبهام ، وهى قوله تعالى :

[وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا] .

فبنوا الإِنسان مهما أُوتو من العلم التجريبى ،

والمعرفة التى تكتسب عن طريق البحث المادى المجرد ، فإن ذلك بالقياس إلى مالم يعرفوه من علوم الكون وأسرار الحياة ، إنما هو قليل ، بل كلما تقدم الإنسان فى معرفة العلوم التجريبية ازداد اقتناعه بأن هناك أشياء كثيرة لاتزال مبهمة على علمه ، مغلقة أمام فهمه .

ولو ذهبنا نضرب الأمثال لذلك لضربنا مثلا بالفلكيين القدماء الذين كانوا يعتقدون أن الأرض هى مركز الكون ، وأنها أكبر من النجوم ، وبعضهم كاد أن يجزم بأبعاد المسافات التى تتصل بين الأرض والكواكب ، وهم بعلمهم ذلك مقتنعون ، ولو قال قائل - فى ذلك الوقت - إن ما سيعرفه أهل القرن العشرين عن الأرض والكواكب والأبعاد بين النجوم ، يجعل معارفكم أضحوكة الضاحكين ، وسخرية المستهزئين ، لَوَلَّوْ عنه مدبرين ، ولقالوا :

إنه لهم من الحاسدين ، بل ربما قالوا : أَنَّى للمتأخرين أَن يعلموا علم المتقدمين .

وربما ضربوا له المثل القائل :

[مَا ترك الأَولُ للآخرِ شيئاً]

ولضربنا مثلًا آخر بالأَطباءِ الماهرين ، الذين كانوا يعتقدون أَن علمهم بالطب لن يعلو عليه علم ، وفهمهم للأَمراض يقصر دونه كل فهم .

ولكن الزمن يدور دورته ، ويكتشف عالم الميكروبات والجراثيم ، فإِذا به عالم قائم بذاته ، بل إِذا بالجراثيم أُمم بعدها أُمم ، وإِذا بالطب تفتح أَمامه من المعرفة أَبواب يقصر دونها خيال الأَطباءِ الأَقدمين .

وبعد عالم الجراثيم والمكروبات يتجلى أَمام المنظار الأَليكترونى عالم الفيروسات ، فإِذا به عالم آخر ، أَدق حجماً ، وألطف معنى ، بل أَعقد خَلْقًا ،

وأعتى خُلُقًا ، وإذا بالأَولين والآخرين يعرفون ، بل يستيقنون بأَن من كانوا قبلهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا .

هذا فيما يتعلق بالطب ، أَما ما يتعلق بالفلك فالأَمر أَجلُّ وأَعظم ، بل هو أَروع وأَضخم فاكتشاف المجرات ، ثم العوالم الكثيرات ، ثم الأَبعاد السحيقة من المسافات ، قد جعل الفلكيين المتأَخرين يرثون للفلكيين المتقدمين ، بل ربما جعلهم منهم يسخرون .

وبعد :

أَليست هذه شواهد على أَن بنى آدم لم يؤتوا من العلم بالنسبة إلى كل العلم ، أَو بالنسبة لما قد يعلمونه إلا قليلا ؟ .

فالروح إذاً من علم الله الذى لم يرد أَن يخبر بحقيقتها أَحداً من خلقه ، بل إنه أَبهم صفاتها إبهامها إذ قال [مِنْ أَمْرِ رَبِّى] .

وقد قال لى صديق من المؤمنين ، وهو يتمزق أَسفاً ، ويتحرق غيظاً : أَلم تسمع بما قال فلان الملحد ؟

لقد أَنكر الروح ، وقال : لو كان هناك فى بدن ابن آدم شىء غير الجسد وغير اللحم والدم والعصب والعظم للمسه الجراحون ، ولوجده الْمُشَرِّحُون ، ولكن الذى تسمونه الروح ما هو إلا مظهر من مظاهر الحياة لذلك اللحم والدم . ثم أَضاف ذلك الملحد قوله : إِننى رجل عملى ، لامكان للخيال فى تفكيرى ، لذلك لا أُومن إِلا بما رأَيته عيانا ، أَو لمسته بنانا .

ويطلب منى صديقى المؤمن أَن أُعد له جوابا يرد به على ذلك الملحد ، ويقنعه بخطأ ما قال .

فقلت له : لقد قالها قائل من قبله ، وهو طالب فى كلية الطب فى هذا الزمان .

قال : أَدخلنا أُستاذ التشريح ونحن مجموعة من الطلبة إلى حيث الجسد الآدمى الطرى ممددًا على السرير ، وأَخذ يشرح لنا كيفية تركيبه ، ويوضح كيفية اتصال كل عضو من أَعضائه بالأَعضاءِ الباقية

قال : وأَخذ الطلبة يتابعون الأُستاذ ، أَما أَنا فإِننى أَخذت أَبحث عن شىء آخر ، وهو الروح . أَين الروح ؟ أَهى فى الدماغ ؟ لقد بحثت عنها هناك فلم أَجد إِلا مادة هلامية .

أَهى فى القلب ؟ لقد بحثت عنها فى القلب فلم أَجد إِلَّا عضلة من العضلات .

أَهى فى الدم ؟ تلك بقايا الدم ليس فيها من الروح شىء .

ثم خلص ذلك القائل الملحد إِلى أَنه ليس هناك روح ؟

ويمكن أَن يكون جوابنا للملحِدَيْن كليهما ، ولمن هو على شاكلتهما بأَن نضرب مثلا محسوساً بالبطارية (الحاشدة) ليس ذلك لأَننا نقول بأَن الروح مثل الكهرباءِ ، فضلا عن أَن نقول إِنهما من معدن واحد . حاشا وكلا .

ذلك بأَن الروح [من أَمر الله] الذى لم نعرفه حتى الآن ، وإِنما نضرب المثل على وجود شىءٍ لم نعرف حقيقته ، وهو بين أَيدينا كلنا .

نقول لذلك الملحد : ما مثلك إِلا مَثَل مَنْ جاءَ إِلى بطارية مليئة بالكهرباءِ ، فأَخذ يكسرها ويمزقها ، ويجوس خلال أَجزائها ، يتطلب أَن يجد الكهرباء : يراها بعينه ، أَو يلمسها بيده ، أَو بالمقبض الذى فى يده .

وعندما لم يجد الكهرباء التى يطلبها يلملم الأَجزاء المتناثرة ، أَو الأَشلاء الممزقة من البطارية ، ويقول ساخراً :

يقولون : إن هناك كهرباء ، أنا رجل عملى ، لامكان للخيال فى تفكيرى ، ولا أُومن إلا بما رأته عينى ، وما لمسته يدى . ولم أعثر بهذه الطريقة فى البطارية على الكهرباء . . .

إننى لم أعثر فى البطارية إلاّ على أجزاءٍ نحاسية ، وشيءٍ من الزنك ومحلول كيمائى .

وقد يسمعه سامع ممن يعرفون شيئاً عن طبيعة الكهرباء ، وربما يكون مثله من الملحدين ، ولكنه يقول له :

لقد أخطأت فى الحكم - يا صاحبى - فالكهرباء طبيعتها أنها لاترى ، وإنما تحس آثارها ، وكونها لاترى لاينفى أنها موجودة ، وأنها حقيقة من الحقائق .

وقد يتجادل هذان الملحدان ، فيقول الأول : كيف تكون حقيقة وهى لاترى ؟

فيقول الثانى : هكذا هى معروفة الآثار ،

مجهولة الكُنْة ، وقد يكون فى مجلسهما شخص ثالث من المؤمنين ، ينبرى لهما فيقول :

وهكذا الروح طبيعتها أَن تُحَسَّ آثارُها .ولا يعرف كُنْهُهَا ، فهى موجودة مجهولة .

ثم نزيد على ذلك فنقول :

إن البطارية تمدنا بمثال يوضح شيئاً من بعض صفات الروح .

إن البطارية قبل أَن تملأَ بالكهرباء ، إنما هى موضع صالح لحلول الكهرباء ، ولو اختلَّ فى البطارية شىء لما حَلَّتْ فيها الكهرباءَ .

إذًا فالكهرباءِ يحتاج وجودها إلى مسكن ملائم ، أَو قل بلغة هذا العصر : إلى وسط مناسب .

والروح لاتحل فى الجسم ، ولا تستمر فيه إلا إذا كان صالحاً لذلك ، مناسباً لحلول الروح أَوبقائها فيه ، فإذا نزف الدم - مثلا - من الجسم . أَصبح

غير صالح لبقاءِ الروح فيه ، ومن ثَمّ فارقته ، ففارق المرءُ الحياة . وإذا تلف عضو حيوى من أَعضاءِ الجسم ذات العمل الكيمائى ، مثل الكبد ، أَصبح الجسم غير صالح لحلول الروح ، فرحلت عنه .

مثلما إذا خربت البطارية فتسرب منها الكهرباء ،

وبعد هذا البحث فى الروح قد يسأَل سائل ، أَو يقول قائل مرة أُخرى : ما هى الروح ؟

فيكون جوابه الذى لاجواب غيره :

[قُل الرُّوحُ مِنْ أَمْر رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . . .

ويسمع المؤمن ذلك الجواب فيتلوا الآية مرة أُخرى ، وربما أَكثر من مرة . فتهب عليه نفحة من نفحات السكينة القرآنية ، تغمر فؤاده بالسعادة ، وتعمر نفسه بالرضا والتسليم .

(المـال والبنون)

[الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا]

[الكهف : ٤٦]

المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، وزينة الحياة الدنيا قد يهواها المؤمن وغير المؤمن ، وهذا أمر طبيعى فى الإنسان ، إنما الشىءُ الأفضل عائدةً فى الآخرة ، والذى هو خيرٌ أملًا فى الآجل ، هى الأعمال الباقيات الصالحات ، وإذْ تقرر ذلك فإنه لاينبغى لمن آتاه الله مالًا أو أولادًا أن يفخر ويطغى بسبب ذلك ؛ لأن ذلك شىء قدره الله ، وهيأ له الأسباب التى جعلته يحصل عليه ، وهو أمر فى حد ذاته لا يقرب إلى الله ولاينجى من عذابه ، كما قال :

[وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ،

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ]

[سَبأ : ٣٥ — و٣٧]

بل إن الأَموال والأَولاد قد تلهى الإِنسان عن ذكر الله ، أَى قد تشغله عن طاعة ربه ، أَو يمنعه الإِعجاب بها عن شكر ربه ، وهذا من اللهو عن ذكره كما قال تعالى :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَموالُكُمْ وَلا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ]

[المنافقون : ٩]

فالأَموال والأَولاد لا تُقَرِّب المرءَ إِلى الله لمجرد حصوله عليها ، لأَنها من زينة الحياة الدنيا التى إِذا أُوتِيهَا المرءُ فشكر كان خيراً له ، وإِذا أُوتِيهَا فَأَلْهَتْه

عن ذكر الله كانَ شرًا له ، والأَخِيرُ احتمال كثير الوقوع ، لأَنها فتنة قد تطغى المرءَ وتبطره ، فينسى نعمة الله عليه ، كما قال تعالى :

[إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ]

[التغابن : ١٥]

(المـــوت)

[وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ]

[الأَنبياء : ٣٣ و ٣٤]

لم يسبق لبشر أَن أَعطى الخلود بنفسه حيا على وجه الأَرض ، والنبي صلى الله عليه وسلم إِذا مات ، فكذلك المنكرون دعوته سيموتون ، كما قال تعالى فى هذا الاستفهام الإِنكارى .

[أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُون]

ذلك بأَنَّ كل نفس لابد ذائقة الموت ، وأن جميع الناس مرجعهم إليه تعالى : ولكن الموت بعده حياة أُخرى ، وبعد قيام الساعة ، يبعث الناس من قبورهم ، أى يَحْيَوْنَ حياة أُخروية جديدة .

[ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ]

[الحج : ٦ و٧]

فكما أَنه تعالى حق ، يؤمن بوجوده المؤمنون ، ويستيقن به المستيقنون ، وذاته تعالى لا تشبه ذوات المخلوقين ، فكذلك أُمور الآخرة ، هى حق واقع لامحالة ، ولكن تفاصيل وقوعها لاتشبه ما يعرفه الناس من أُمور دنياهم ، وكذلك أَحوال ابن آدم فى الحياة الآخرة ، هى مغايرة لأَحوال حياته الدنيا وهذا هو معنى الإِشارة فى هذه الآية بقوله تعالى :

[ذَلِكَ بِأَنَّ اللهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَىٰ]

وبين تعالى فى آية أُخرى أَن المؤمنين وغير المؤمنين يموتون جميعاً ، لأَن الموت مُقدر على ابن آدم من حيث هو بشر ؛ لايختلف فى الإِصابة بالموت أَحد عن أَحد ، وإِنما الاختلاف سيكون يوم القيامة ، عند البعث بعد الموت ، حيث يختصم الناس عند ربهم أَى يحتكمون إِليه تعالى ، كما قال :

[إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ]

[الزمر : ٣١]

بل إِن الموت أَمر لايمكن الفرار منه إِلى مالانهاية ، كما قال تعالى :

[قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]

[الجمعة : ٨]

(وراثة الأَرض)

[وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِى هَذٰا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ]

[الأَنبياء : ١٠٥ و١٠٦]

تَأَمَّلْ هاتين الآيتين الكريمتين ، تجد فيهما قاعدة كونية وسنة من سنن الله الثابتة ، وهى : أَنَّ الأَرض يرثها من عباد الله من كانوا صالحين ، أَى صالحين لوراثتها بالعمل الصالح على عمارتها بالعدل والأَخذ بأَسباب صلاح الأَرض ومن عليها ، وبالعمل اللازم لذلك .

وليس المراد بالصلاح هنا مجرد صلاح المرء فى نفسه لأَعمال آخرته دون دنياه ، بدليل قوله تعالى

[إِنَّ فِى هَذٰا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ]

فالعبادة الخاصة المجردة عن الأَخذ بأَسباب

الحياة ؛ لاتكفل وحدها وراثةَ الأَرض ، .

والأَمثلة على ذلك لاتحصر ، ولكن يمكن الاستشهاد بحالة المسلمين أَنفسهم فى الصدرالأَول ، عندما عملوا على الإِصلاح فى الأَرض ، عن طريق الجهاد فى سبيل الله ، ثم لما فتح الله عليهم أَصلحوها بالعدل واتباع أَوامر الله فى الحكم .

ثم مرت على المسلمين أَزمان اشتغل بعضهم بالعبادة دون العمل على إِصلاح الأَرض ، واشتغل بعض قادتهم بغير ذلك ، فلم يعملوا لإِصلاح الأَرض ، ولالإِصلاح الدين ، فسلط الله عليهم من أَعدائهم من كانوا أَكثر عملا لدنياهم منهم ، فغلبوهم على أَرضهم .

تلك سنة من سنن الله فى الكون ، ينبغى على كل مسلم - وبخاصة قادة المسلمين ومفكريهم - أَن يعوها ويحفظوها ، ويعملوا بموجبها . قال تعالى :

[إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمنُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أُذِنَ لِلَّذِين يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، وَلِيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَا هُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ]

[الحج : ٣٨ - ٤١]

أَخبر سبحانه وتعالى أَنه يدافع عن الذين آمنوا ، وهنا نكتة ، لابد من تأَمُّلها ، وهى : كونه تعالى أَخبر أَنه يدافع عن الذين آمنوا ، وقد نعتهم هنا بنعت الإِيمان فقط ، وذكر المدافعة عنهم فقط .

أما الذين ينصرونه ، وهذا عام وإذا مكَّنَهم فى الأَرض أَقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأَمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وهذا خاص فإنه ينصرهم ، وهذا يدل على أَن الاعتقاد المجرد من العمل الصالح للدنيا والآخرة ليس من موجبات النصر على الأَعداءِ

وهذا تأكيد على أَهمية العمل الصالح لعاقبة الدنيا والآخرة ، وهو أَمر تكرر ذكره والتنبيه عليه فى آيات كثيرة من الكتاب الكريم ، أَشرنا إِلى بعض ما ذكره منها ، وعندما كان السلف الصالح من المسلمين منتبهين لذلك محققين له بالقول والعمل والالتزام ؛ كانت لهم العِزَّة والغلبة ، وبعد أَن تجاهله الخلف وجهلوه ، أَو تركوه استثقالا منهم للعمل ، وتفضيلا للراحة على التعب ، فقدوا تلك الكرامة فى أَكثر أَحوالهم ، بل إِن أَعظم ما أُصيب به الخلف من المسلمين : أَنهم نسوا أَهمية هذا الأَمر ؛ حتى أَصبحوا يهتمون بنوافل العبادة أَكثر من

اهتمامهم بأُصول المعاملات الإسلامية ، حتى أَصبح عندهم بعض من يظهرون الزهادة ، ويقومون بنوافل العبادة من الصلاة والصيام أَرفع منزلة فى نفوسهم ، من الذين لايزيدون على الفرائض الدينية ،ولكنهم ينفعون المسلمين بعملهم الذى هم فيه من صناعة يحكمونها ، أَو زراعة يقومون عليها ، أَو دفاع عن ثغر من ثغور المسلمين يكفلون بالدفاع عنه ، على قدر طاقتهم .

والحاصل أَنه ينبغى التنبه إلى هذه النكتة البديعة فى هذه الآيات المحكمات ، وفى الآية الثانية منها يخبر تعالى أَن الذين إعتدى عليهم جديرون بأَن يهيىء الله لهم أَسباب النصر ، وأَن يعينهم على أَعدائهم إذا أَخذوا بأَسباب ذلك .

ثم نوه سبحانه بأَهمية دفع الناس بعضهم ببعض ، والناس هنا لفظ عام يشمل المؤمنين وغيرهم ، وأَنه لولا ذلك لحدثت مفاسد عظيمة ،

وهذه سنة من سنن الله فى الكون الثابتة إلى يوم القيـــامة .

وهذه الآيات بمجموعها تبين أن النصر فى الدنيا لمن نصر الله وأطاعه باتباع أوامره . ومن ذلك إقامة الشعائر المفروضة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا أمر جامع لايقتصر على أمور أمور الدين فقط ، بل يشمل الأمور الدنيوية التى يحتاج إليها انتظام شأن المسلمين فى معايشهم ، وهى كثيرة لاتحصر هنا ؛ فيجب أن يقوم ولى الأمر وكل مسلم بحسب منزلته ، وعلى مقدار طاقته بالأمر بالمعروف فيها والنهى عما هو منكر ضار .

أما فى الآخرة فقد نوه تعالى بأنها خالصة للذين لايبغون فى الدنيا عُلُوًّا ولافسادًا ثم ختمها بهذه الجملة البليغة العامة ، وهى أن العاقبة للمتقين ، فقال :

[تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ

عُلُوًا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبةُ لِلْمُتَّقِينَ]

[القصص : ٨٣]

وقد وعد سبحانه وعدًا ، ووعده هو الصادق بأَن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ستكون له عاقبة التمكين فى الأَرض ، فقال :

[وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضٰى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . لَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ]

[النور : ٥٥ ـ ٥٧]

فبعد وصفهم بالإِيمان وعمل الصالحات ، أمر

بإقام الصلاة وإيتاءِ الزكاة وطاعة الرسول ، أخبر بأن نصر المؤمنين على الكافرين لن يعجزه تعالى ، لأن الذين كفروا لن يكونوا معجزين لمن قاومهم وحاول عليهم ، ثم أكد ذلك بقوله :

[إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ]

[غافر : ٥١]

فالنصر فى الدنيا والآخرة للرسل وأتباعهم ، ولكن الشأن فى تحقيق الإنصاف باتباع الرسل ، والأخذ بكل ما يبتغيه ذلك من عمل ، وما يفرضه من واجبات .

وعلى المؤمن الحق أن تطمئن نفسه إلى نصر الله إياه ، إذا كان من أتباع الرسل حقا .

لاسيما أن :

[للهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذ يَفْرَحُ

الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللهِ لَايُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ]

[الروم ٤ : ٧]

فالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، كثيراً ما يغفلون عن تلك الحقيقة الكونية التى لاتبديل لها ؛ وهى نصر المؤمنين الذين يعملون الصالحات لدينهم . ولأُمور معاشهم ، ويأْخذون بأَسباب النصر ، ولو تأَملوا أَحوال الرسل لعرفوا ذلك كما قال تعالى :

[وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ]

[الصافات : ١٧٣]

« فى الزواج »

[وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ]

[النور : ٣٣]

الأَيامى : جمع أَيم :

نزلت هذه الآية الكريمة فى العزّابَ الَّذِين لاطَوْلَ لهم من مال أَومتاع ، ولايسارع أَولياء النساءِ الصالحات للزواج إلى تزويجهم ، بسبب ذلك يأمر تعالى : من كان عنده بنت صالحة لأَمثالهم أَن يزوجه منها ، حتى لو كان فقيراً ، فإن الله تعالى سيغنيهم من فضله ، ويعينهم على إعالة نفس الواحد منهم وإعالة زوجته إذا أَخذ بأَمر الله فى طلب الرزق الحلال لأَنه إنما تزوج طلبا للعفة ، ذلك بأَن الله تعالى واسع القدرة والسلطان

على رزقهم ، وهو عليم بكل شيءٍ .

أما الذين لايتيسر لهم ذلك ، فعليهم بالتزام العفاف حتى يجدوا نكاحا ، أى سبباً من أسباب الزواج ، سواءً كان ذلك السبب ماليا مثل القدرة على المهر ، أو معنويا بأن يجدوا من يمتثل ماجاء فى هذه الآية ، ويقدم على تزويجهم ، رغم عدم قدرتهم المالية الظاهرة .

(الغيب)

[إِنَّ اللهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]

[لقمان : ٣٤]

هناك أشياء تهم الإنسان معرفتها ، ولكنها رغم ذلك ، مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومن ذلك علم الساعة ، وعلم المرء ماذا سيحصل له من كسب ، أى

عمل صالح أو طالح ، كما أن الإنسان لايدرى بأى أرض يموت .

ذلك بأن الله سبحانه وتعالى عليم بكل شىء ، خبير بكل أمر ، ومن ذلك أنه ينزل الغيث ، ويعلم حتى تتهيأ الأسباب لنزوله ، كما أنه تعالى يعلم ما فى أرحام النساء من تطور هائل فى أطوار الجنين ، وتقلبات خلقه ، وغير ذلك .

لذلك لاينبغى للمؤمن أن يحمّل نفسه هم ما سيكون له فى المستقبل بعد أن يأخذ بجميع الأسباب التى توصل إلى ما يريد ، من خير مادى أو معنوى

(الأمن للمستقيمين على أمر الله)

[وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ

فَضْلِهِ لَايَمَسُّنَا فِيها نَصَبٌ وَلَايَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ]

[فاطر : ٣٥]

من أَصعب وأَشق ما يصيب الإِنسان فى هذه الدنيا ، هو : الحزن ، وضيق النفس .

والدليل على ذلك أَنه يبلغ الأَمر ببعض الناس غير المؤمنين إِلى الانتحار ، تخلصاً من ذلك الضيق . ظنا منهم أَنهم يستريحون بذلك من ضيقهم إِلى الأَبد . ولكن ضيقهم يستمر بعد الموت ، أَما المؤمنون فإِن الموت يعتبر الحد الفاصل بينهم وبين أَنواع الحزن ، إِذ يذهب الله عنهم الحزن ، ويحلهم الجنة ، دار الإِقامة الدائمة .

[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهى

أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ
[فصلت ٣٠ ـ ٣٢]

وذلك لأَنهم من الذينَ قالوا ربنا الله ثم استقاموا أَى : أَقروا بالإِيمان بأَلسنتهم ، وحققوا ذلك بأَعمالهم التى استقامت على أَمر الله .

قال تعالى :

[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ]
[الأَحقاف : ١٣]

وفى الحين الذى يكون الظالمون فيه خائفين مشفقين من مغبة أَعمالهم السيئة التى ستحيق بهم ، يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى نعيم مقيم . وذلك أَمر يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى هذه الدنيا ، وتأَمل كونه تعالى كرر نعت الذين آمنوا بأَنهم عملوا الصالحات فى الآيتين

معاً لتزداد معرفة بأهمية العمل الصالح فى الدنيا والآخرة . وذلك فى قوله :

[تَرَىٰ الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . ذَلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]

[الشورى ٢٢ و ٢٣]

(لاعنصرية فى الإسلام)

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]

[الحجرات : ١٣]

ليس فى الإسلام تفرقة عنصرية ، بل ليس

فى الإسلام سياسة عنصرية ، والأدلة على ذلك كثيرة ، ولكننا بصدد تلاوة آيات السكينة والطمأنينة من القرآن الكريم ، وأعظم آية فى هذا المعنى هى هذه الآية [يا أيّها النَّاس [افتتحت بهذا الخطاب الذى يعم الناس كلهم على اختلاف ألوانهم ، وفى مختلف أقطارهم ، وعلى تباين مقاماتهم فى الحياة [إنا خلقنا كم] وهذا خطاب للجميع [من ذكر وأنثى] إذ أنتم فى النشأة متساوون ، أو لنقل إنكم إخوان فى الإنسانية من أصل الخلقة ، [وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ] فكونهم شعوبا وقبائل ، أمر حادث بالنسبة إلى أصل الخلقة ، وذلك لحكمة مذكورة ، وهى قوله تعالى [لِتَعَارَفُوا] فالعلة فى جعل الناس شعوبا وقبائل إنما هى : للتعارف ، وليس للتفاخربالتفاضل أو بعلو شعب منهم على شعب آخر ، أو فرد من شعب على فرد من شعب آخر ، بسبب العرق أو اللون ، ذلك بأنه ليس للأبيض ـ مثلا ـ أن يفخر ببياض

لونه ، لأَنه هو والأَسود أَشقاء من أَصل واحد ، ولأَنه ليس من فعله ، فهو لم يبذل جهدًا فى أَن يكتسب اللون الأَبيض ، والأَسود الذى فخر عليه لايلام على لونه الأَسود ، لأَنه ليس من صنع يده . وإِنما الذى يفرح به الإِنسان أَو يذم هو فعله وما كسبت يداه .

ولذلك قال تعالى :

[إِنَّ أَكْرَمكم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ]

أَى : فالتفاضل إِنما هو بالتقوى التى هى العمل الصالح ، وليس بالعنصر ، ولا القبيلة أَو الشعب ، ولذلك نجد دائما أَن تقسيم الناس فى القرآن هو كان دائما على أَساس العمل ، مثل : يَايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَيَايُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا أَو مثل أَصحاب اليمين وأَصحاب الشمال ، ومثل المتقين والفجار الخ .

ثم ختم تعالى هذه الآية بقوله :

[إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خبيرٌ]

فالذى خلق الناس من ذكر وأنثى ، وجعلهم شعوبا وقبائل لكى يتعارفوا بذلك ، عليم بأَن أَصلح ما للناس هو أَن يكون التفاضل بينهم على أَساس التقوى والعمل الصالح ، خبير بما يصلحهم وما يصلح الكون ، ومن ذلك أَنه خبير بأَن ذلك هو الواقع ، وأَنه هو الأَصلح .

وإِذًا ليس فى الإِسلام تفرقة عنصرية ، بل إِنها تتعارض مع المبادىء الإِسلامية وتناقضها .

(إِنفاق المـــال)

[لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَايُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا]

[الطلاق : ٧]

هذه قاعدة عظيمة وأَصل عام فى الإِنفاق المالى ، أَو قل : فى الواجبات المالية ، وهى أَن ينفق مَنْ

وسَع الله عليه فى الرزق من سعته ، ولايضيق على من تلزمه لهم واجبات مالية ، مثل النفقة على الأَولاد ونحوها .

أَما مَنْ قُدِرَ عليه رزقه : أَى : من كان ذا دخل محدود [بعبارة هذا العصر] فلينفق مما آتاه الله بمقدار استطاعته ، وعلى قدر دخله ، لأَن الله تعالى لايكلف نفساً إِلا بمقدار ما آتاها من القدرة والاستطاعة .

وهو ـ سبحانه ـ يبدل الأُمور يسراً بعد عسر ، فلا يكون الفقر أَو الرزق المحدود ضربة لازب ، وأَمراً لافكاك منه ، وإِنما على المرء أَن يسعى ، وعليه أَلَّا يعجز أَو يكسل .

[وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَاتُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ]

[البقرة : ١٩٥]

أَمر الله بالجهاد بالنفس ، وبإِنفاق الأَموال فى

سبيله ، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ أمر أن يكون ذلك كله بإحسان ، وأخبر أنه يحب من يحسنون الجهاد ، ومن يحسنون إنفاق الأموال ، ولذلك نهى عن إساءة العمل فى الجهاد بالنفس والمال ، فقال :

[وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ] فالذى يحمِّلُ نفسه ما لايطيق أو ينفق فى سبيل الله فوق ما يستطيع مثله أن ينفقه ، بأن ينفق ما يحتاج إليه لإعالة نفسه أو عياله ، فإنه ليس من المحسنين لأنه ـ سبحانه ـ يأمر بالتضحية ، ولكن بطريقة حسنة حكيمة .

[وَمَنْ يَتَّقِ اللهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُه إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىءٍ قَدْرًا .

[وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا]

[الطلاق ٣ و ٤]

فى هاتين الآيتين الكريمتين الوعد الكريم بأَن من يتق الله يجعل له مخرجا مما هو فيه ، أَو مما يخشاه من ضيق الحياة ومن ذلك الخشية من ضيق الرزق ، إِذ يرزقه من حيث لايظن ولايحتسب ، أَى من حيث لايؤمل أَن يأَتيه الرزق ، ذلك بأَن الله تعالى قادر على كل شىءٍ ، ومنه رزقه لمن يشاءُ من عنده ، من حيث لم يظنوا لأَنه تعالى بالغ أَمره ما شاءَ من أَمر أَن يقع فإِنه لابد واقع لامحالة ولكنه ، تعالى قد جعل لكل شىءٍ قدراً .

وفى الآية الكريمة الثانية ذكر يسر الأَمروسهولته وفى الآية الأُولى ذكر المخرج ، وهذا دليل على الانفراج فى كل الحالين

فهذا وعد صادق ، لابد أَن يقع ، ولكن

الشأَن كل الشأَن فى تحقيق التقوى التى هى اسم جامع للامتثال للأَوامر والانتهاءِ عن الزواجر .

فمتى تأَمل المؤمن ذلك وتيقته اطمأَنت نفسه ، وسكنت هواجسه .

(هل يعود النصر للمسلمين) ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

[أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ]

[سورة الفيل : ١ - ٥]

جدير بمن يفكرون فى كيفية إنهاض العرب من كبوتهم الحاضرة ، فيحارون فى الوسيلة إلى ذلك . ويترددون بين الدعوة إلى القومية العربية ، وبين التماس وسيلة أُخرى غربية أو شرقية .

وإذا طَلب منهم طالب أن يكون تفكيرهم فى إنهاض العرب بما نهض به أجدادهم العرب

الأَولون ، شككوه فى ذلك . وقالوا : [أَوْ قَال بَعْضُهُمْ] ، إن عنصر العرب كفيل بأَن يتجدد فى هذا الزمان بمثل ما عليه كان ، أَو بأَكثر مما كان .

وكأَنهم نسوا [أَو تناسوا] أَن الإِسلام الذى تنهض به العرب لم يكن عنصريا ، ولم يكن قومياً ، ولذلك لم يخاطب القرآن العرب بمفردهم فيه ، كأَن يقول يا أَيها العرب ، ولم يذكر جزاءاً حسنا لمن كان عربيا ، ينتفى عن غيره إِذا لم يكن كذلك .

وإِنما شرف الله العرب بالإِسلام فذكر أَن الرسول صلى الله عليه وسلم هو النبى العربى ، وذكر القرآن الكريم بأَنه بلسان عربى مبين ، وهو تشريف كفل للعاملين منهم بالإِسلام بحق وصدق مقامات من الفضل باقية ما بقى الدهر؛ بل إِن بعضهم أَصبحوا نماذج إِنسانية رائعة يحتذى ما كانت تتمتع به من خلق

رفيع كل من أراد الخلق الرفيع ، ولو كان من غير المؤمنين بالإسلام .

ولكنك إذا ذكرت ذلك ربما لاتستطيع إقناع المفتونين بالقومية ، المخدوعين بالألفاظ الأجنبية . فإذا كان الأمر كذلك فاقرأ عليهم هذه السورة [سورة الفيل] وأوضح لهم كيفية نزولها وفصِّل لهم تفصيلا قصة الفيل وما سبقها وما لحقها من أفاعيل :

قل لهم : إن بعض العرب العاربة كانوا قُبيل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم محكومين من قبل الأحباش . أولئك الأحباش الذين كان العرب فى الجاهلية يحتقرونهم ؛ بل ربما كان منهم أفراد يستبعدونهم ، وكان حاكم اليمن من الحبشة فى ذلك الوقت اسمه (أبرهة) ، وقد تطاول أبرهة إلى

أرفع من مقامه فى حكم اليمن ، فأراد أن يحكم الحجاز ، أو أن يقضى على قداسته فى نفوس العرب بأن يهدم الكعبة التى هى مصدر العز والفخر لعرب الحجاز

فجهز جيشه ، وقاد معه الفيل من اليمن حتى صار فى المغمّس قرب مكة .

ولما بلغ قريشاً ما فعل ، وعرفوا أنه آت لتخريب الكعبة وإذلال سدنتها والقائمين عليها ، تركوه وشأنه ، وخلّوا بينه وبين الكعبة ، ولم ينسوا أن ينجوا بمواشيهم معهم ، وقال كبيرهم فى تبرير فعله : إن للبيت رَبًا يحميه .

ولكن الله رب العالمين ، ربّ كل شىء . وهو الذى أعطى ابن آدم الفضل والتدبير ، وأعطاه من ذلك أن يعرف أن القتال يدفع بالقتال ، وأن

ذلك العدد اللئيم الذى جاء لهدم البيت الحرام ، وإذلاله وأهله ، يجب أن يدافع ويقاتل كما يدافع كل عدو ويقاتل .

ولاشك أن كبير قريش يعرف ذلك . ولكنهم ليست عندهم إرادة للقتال دفاعا عن البيت الحرام ، لأن الغزاة أُناس أقوياءُ فى نظرهم ، مع أنهم دخلاءُ غرباء ، فى بلاد العرب ، لو أن العرب كانوا على هدىً فى ذلك الوقت لما استطاعوا الوصول إلى المغمس . فضلا عن أن يخيل إليهم أنهم سيصلون إلى الكعبة .

ولو كان أهل مكة دافعوا عن البيت الحرام بما استطاعوا ، ثم هزموا بعد بذلهم الجهد ، واستفراغ الوسع فى القتال لكانوا بلغوا عذراً .

ولكنهم خَلّوْا بين البيت الحرام وغزاته حتى أرسل الله جندًا من جنده غيرهم على أبرهة الدخيل

فهزم جيشه ، وكر راجعا على قدميه دون أن يصل إلى البيت الحرام . أو أن يناله بسوءٍ .

ذلك هو تلخيص لقصة الفيل فى منتهى الاختصار ، لأن القصة ليست المقصودة بالذات ، وإنما المقصود العبرة والعظة منها . ولعل فى نزول هذه السورة [سورة الفيل] من الحكم شيئاً مما سنذكره

كان عامُ الفيل هو عامَ مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد أربعين سنة من ذلك أنزل الله عليه الرسالة ، ثم أكمل به الدين ، وختم به النبيين ، فتغير بذلك من أمر العرب بخاصة ، ومن أمر الإنسانية بعامة ما تغير .

فلننظر بعد مضى ثمانين سنة من عام الفيل

على وجه التقريب إلى العرب ، ولنر ماذا كان من أمرهم .

إننا نرى أُولئك القوم الذين خضعوا للأَحباش فى عقر دارهم فى اليمن ، وأُولئك القوم منهم الذين خلوا بين أَبرهة وبين البيت الحرام ، وفروا إلى رءُوس الجبال أَمام زحفه . نراهم وقد نفخت فيهم روح جديدة جعلتهم ينطلقون إلى معاقل كسرى فى العراق ، وما وراءَ العراق ، وإلى حصون قيصر فى الشام وما بعد الشام . يدكون تلك القلاع ويفتحون تلك الحصون ، بين عجب العالم فى ذلك الزمن . بل استغرابه ودهشته .

ربما لايستطيع الواحد منا فى هذا العصر أَن يتصور غرابة هذا الأَمر بالنسبة إلى العالم القديم . إلا إذا ضربنا له مثلًا من حاضره المألوف .

فلنفعل ذلك .

إن أَعظم دولتين فى العالم من ناحية القوة المادية فى هذا الزمن هما : الولايات المتحدة الأَمريكية ، والاتحاد السوفيتى . أَرأَيت لو أَن إِحدى الدول العربية الفقيرة [ولنفترض أَنها اليمن — فى هذا الأَمر سيان شمال اليمن وجنوبه ، أَو كلاهما معاً] حدتها نفسها بغزو الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأَمريكية ، والتغلب عليهما مجتمعتين ، بل وإِخضاع سكانهما للدين الذى تدين به تلك الدولة الفقيرة ، إِلا من رضى منهم بأَن يبقى على دينه ويدفع الجزية للمسلمين

إِن دَوْلَتِىَ الأَكاسرة والقياصرة فى ذلك الزمان هما مثل دولتى روسيا وأَمريكا فى هذا الزمان : أَقوى القوى المادية الدولية .

مع ذلك فقد تغلب العرب المسلمون عليهما ، وهزموهما ، وفتحوا بلادهما حتى دخل سكان تلك البلاد فى دين الله أفواجا ، وحتى صار ما هو أبعد من تلك البلاد دار إسلام يذكر فيها اسم الله ، ويتلى فيها القرآن . وانتشرت اللغة العربية فى أصقاع المعمورة إلى أماكن لم يسمع العرب فى جاهليتهم بها ، حتى بالذكر .

ونكاد ننسى الأحباش ، وأين كان مقدار قوتهم من تلك القوة الإيمانية التى دكت عروش الأكاسرة والقياصرة ، إنها — بلا شك — لاتعد شيئاً .

كما نكاد ننسى ما قلناه فى أول الكلام عن القومية ، وما هو شبيه بالقومية ، ولكننا نتساءل :

هل تغيرت قومية العرب فى ظرف تلك السنين ؟ أتبدل عنصرهم فى أقل من قرن من الزمان ؟

أكانوا عام الفيل من عنصر غير العنصر الذى كانوا منه بعد مضى ثمانين من عام الفيل ؟

الجوابُ : لا . وألف لا . إذاً ما الذى غَيَّرهم ؟ ونقلهم من حال إلى حال ؟

إنه - بلاشك - دين الله الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

إنه الإسلام الذى شرف الله به العرب ،وأعز به من آمن به وعمل بمقتضاه : أعز به مِنْ ذِلَّةٍ ، وأغنى به من قِلَّة ، وآمن به مِن خوف ، فهمه العرب المسلمون الأوائل فالتزموا به : قولا ،وفعلا ، وجهادًا ، ودستوراً للحياة ، فكانت لهم العزة ، والرفعة والغلبة ، وكان لهم النصر والتمكين ، والذكر الخالد إلى يوم الدين ، ولن يعز العرب ، ويأمنوا ويرتفعوا إلاّ به .

وتسألنى : أهم الآن على دين غير دين الإسلام ؟

وأجيبك بأن بعضهم بما يفعل على دين غير دين الإسلام ، يجاهرون بذلك ولايَسْتَخْفُونَ ، ويقولون : إنهم على مذهب القومية أو الشيوعية أو غيرها مما يدّعون .

وأكثرهم يقولون لك : إنهم على دين الإسلام مايزالون . وإنهم عليه باقون ، وبه مستمسكون .

ولكن القول شىء ، والفعل شىٌ آخر ، بل إن القول الذى يناقض الفعل يجلب الإثم العظيم كما قال تعالى :

[كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالَاتَفْعَلُونَ]

فإذا قال قائل : إنه مسلم ، ولكنه لايحقق الإسلام فى أفعاله ولا تصرفاته ، ولا يحكمه فيما يأخذ به ومايذره ،

ولايزن أعماله بميزان الإسلام الصحيح ، فإن قوله ذلك لن يكفل له ما كفله الإسلام للسلف الصالح من الصدر الأول [الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا] وآمنوا وعملوا الصالحات .

بل إن ذلك الذى يدعى الإسلام دعوى مجردة من الفعل ، إنما يضيف جريرة أخرى بافترائه على الله ، وبإيهام من لابصيرة لديه فى أمور الزمن بأن ما عليه ذلك المدعى إنما هو الإسلام ، فيصده ذلك عن أن يبتغى الإسلام دينا ، أو يتخذه عقيدة ، عقيدة ، لأن كثيراً من الناس الحائرين فى أنحاء العالم يودون أن يجدوا دينا كالدين الإسلامى ، دين الفطرة والسماحة والنقاء والبساطة والعدل ، والإنصاف ، إلا أنهم عندما يرون حالة كثير من المنتسبين إلى الإسلام يعتقدون جهلاً أن ما هم عليه

هو الإسلام ، وأنهم إذا أسْلموا فإنهم سيكونون مثلهم ، وهو أمر لايرضونه ولايريدونه .

فعلى المسلم الذى يلتمس وسيلة لإنهاض العرب من كبوتهم ، وانتشال المسلمين من المذلة التى هم فيها ، الآن بالنسبة إلى دول العالم أن يعلم أن الإسلام الذى أنزله الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم كفيل بذلك ، بشرط أن يأخذ به المسلمون المتأخرون ، كما أخذ به السلف الصالحون ، وأنه لن يصلح آخر هذه الأُمة إلّا ما أصلح أولها .

وأنه إذا تيقن ذلك ، واطمأن إليه هدأت هواجس نفسه ، وتبددت غيوم حيرته .

وبالتالى انشرح صدره لمستقبل الإسلام واطمأنت نفسه . وبالله المستعان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس

صفحة

تقديم بقلم فضيلة الأستاذ عبد الله بن محمد بن حميد . . ٣

بعض آيات من القرآن الكريم ٧

مقدمة ١١

نفسية المخالفين ١٩

الطمأنينة فى الغربة ٢١

ما عليك إلا البلاغ ٢٦

لا تحمل غم الذين مضوا ٢٨

الاعتصام بالصبر ٣٠

الدعاء ٣٢

الابتلاء والامتحان ٣٥

القتال ٣٧

توازن القوى فى الأرض ٣٨

الله ولى الذين آمنوا ٣٩

صفحة

لا خوف من الفقر ٤٠
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ٤٦
مصابرة الأعداء ٥٥
الاستغناء عمن تولى عن الحق ٦٤
لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ٧٦
للجهود والأفكار أهل ٧٤
لا يكشف الضر إلا الله ٧٥
الله لطيف خبير ٧٧
لا بد من الأعداء ٧٧
ما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ٨٠
لكل أمة أجل ٨٢
إن ربك لغفور رحيم ٨٧
الإيمان بقضاء الله وقدره ٩٣
المحافظة على النعمة ١٠١
الله كافى المؤمنين ١٠٤
تفرق الأمم والأهواء ١٠٦

صفحة

عرض الدنيا زائل ١١٣
طريق الدعوة إلى الله ١٢٠
طول النفس فى الدعوة ١٢٤
هل تعود فلسطين ١٢٩
التفاضل بين الناس ١٥١
الاقتصاص من الباغى ١٥٣
الروح ١٥٥
المال والبنون ١٦٥
المـــوت ١٦٧
وراثة الأرض ١٧٠
فى الزواج ١٧٩
الغيب ١٨٠
الأمن للستقيمين ١٨١
لا عنصرية فى الإسلام ١٨٤
إنفاق المال ١٨٧
هل يعود النصر للمسلمين ١٩٢

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٨/٥٣٥١

مطابع الدجوى
القاهرة - عابدين
ت ٩٠٠٤٩٨ / ٩٢٤٢٦٨